NIZAR ABDUL-SATTAR



نزار عبد الستّار

الأمريكان في بيتي

الأمريكان في بيتي / رواية عربيّة
نزار عبد الستّار / مؤلّف من العراق
الطبعة الأولى ، 2011



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :11-5460 ، هاتفاكس 751438 / 00961 1 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب: 9157، عمّان 11191 ـ الأردنّ،
هاتف 00962 6 5605431 / 00962 6 5605432 ، هاتفاكس 00962 6 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
خطوط الغلاف والإشراف الفنّي :
محمد سيف® عمّان 00962 7 95297109
لوحة الغلاف : **إيلين سباتز / الولايات المتّحدة الأمريكيّة**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذ الطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

ISBN 978-9953-36-150-9



نزار عبد الستّار

الأمريكان في بيتي



لأجل أن يفرح قلبك أيتها الملكة

قطع البسكويت

أعرف طالع يومي من الخبر الأول .

واصلتُ حلاقة ذقني بينما حنان تقف بجواري حاملة المنشفة وبصرها مشدود إلى أسلوبي الاكروباتيكي في القضاء على اللحية . كان شقيقها حسن ينتظرني في المطبخ ، فقد غافلتني واتصلت به لتعلمه بما حدث لنا ، وادعت أنه جاء للاطمئنان على صحتي بعد أن عرف بتوجعي من القولون طوال الأسبوع الماضي . كانت حنان على استعداد لبذل أقصى خضوع لقاء ألا نتعارك ، أنا وحسن ، كديكين أحمقين . أخذتُ أردد أغنية إيروسية لصباح فخري ، فنبهتني إلى أنني أغني وأرقص منذ نصف ساعة . أردت أن أبقيه مركونا في المطبخ مثل مكنسة ما دام يخاف على ملابسه من أثاث بيتي . قلت لها سأركل حسن على مؤخرته إذا تفوه بكلام لا يعجبني ، ثم تابعت غنائي بانتشاء ثمل وبصوت مرتفع .

الوضع يشبه أن يروي إحدهم نكتة باردة ثم يتوقف ليسأل : هل سمعتها من قبل؟ . بللت وجهي بكالونيا أولد سبايس لتطهير مسالكي التنفسية من رائحة الزيت المحروق التي

أشاعها تنفس الجنود الأمريكان في بيتي . أظهرتُ لحسن ودا مبالغا به ، ولمت حنان ، وأنا أصافحه ، لأنها تسببت في إثارة قلقه دون داع ؛ فقال إن الأمر يستوجب القلق ، وإننا جميعا ضحايا هذا الوضع المعقد . انتبه إلى أنني أوقعته ، وأنه نسي أمر قولوني ؛ فشد قامته وأبدى استغرابه من إهمالي المتعمد لصحتي . نصحني باستعمال كبسولات عشبية ووعد بأن يوفرها لي من مصدر موثوق به .

حسن أطول من أخته . في السادسة والثلاثين ويتمتع بمزايا تجعلني دائما في توتر . يضع عطرا روحانيا للإيحاء بالالتزام الديني مثل معظم تجار المدينة الجدد . كوّن في خريف عام ٢٠٠٣ ثروة من عقد صفقات لتجهيز الجيش الأمريكي ودوائر الدولة بأجهزة الكومبيوتر بالاشتراك مع ابن خالته الذي يحمل الجنسية الأمريكية . ابتعد عن أجواء الموصل متنقلا من مكان إلى آخر إثر مقاولات عدة أخذها من الأمريكان أوصلته إلى بغداد قبل أن يقضي سنة ٢٠٠٦ في سوريا ليعود بعدها ويدير أربعة متاجر كبيرة في شارع الجامعة .

انشغلت حنان ، وقد أصابتها انفعالات التباهي ، بإخراج طقم الشاي الروسي الذي ادعى أبوها أنه هدية من غورباتشوف ووهبه لنا في أول زيارة قام بها إلى بيتنا . جلستُ إلى المنضدة ، وأخذتُ أمضغ قطعة من الخبز دون أن أطلب من حسن تغيير حالة الوقوف التي هو عليها . قال بنبرة تهكّم انه يحسدني على استرخائي وتوقّع أنني سأعيش طويلا . الشيء الذي يحبطني

دائما هو رؤية حسن دون كرش . أمسك بعقدة ربطة عنقه المارونية وتابع :

ـ لقد عادوا يا جلال من جديد . قل لي ماذا ستفعل الآن؟ .

أرجعت الكرسي إلى الخلف ووضعت ساقا على ساق وقلت مع نظرة باردة :

ـ الأمريكان غادروا فجرا ، وقبل قليل صحوت من النوم . لا أملك تصورا محددا . سأبلغك عندما تتكون الأفكار في رأسي .

نظر إلى حنان وأومأ لي موحيا أنه لا يريدها أن تسمع حديثنا ، فطلبتُ منها أن تحضر لي علبة سجائري ثم سألته إن كانت بدلته الرمادية من منشأ تركي؟ . مط شحمة أذنه بسبابته وإبهامه ، ثم حدد بهما شاربه الخفيف الأشقر وقال وهو يخطو خطوة قصيرة :

ـ إذا كنت تستهين بحياتك وتنتظر أن يأتي أحدهم ويثقب رأسك برصاصة فهذا شأنك . افعل ما يمليه عليك جنونك لكن تأكد أننا لن ننظر إليك بإعجاب ولن نتكلم عنك كبطل أبدا .

أخذ نفسا عميقا ودار حول المنضدة ليواجهني :

ـ أنا مستعد لتنفيذ ما تراه يحل هذه الأزمة . إذا رغبت بالانتقال إلى مسكن آخر ، سأوفره لك فورا . وإذا رغبت بالخروج من العراق ، فسأنقلك إلى أي بلد تريد . المهم إنهاء

مسألة ملاحقة الأمريكان لك .

شكرته ، إلا أنه استمر بتجميل عرضه طالبا أن أعد الأمر بداية تفاهم جديد ، وأنه في حال قبولي الذهاب إلى سوريا فسيوفر لي العمل والسكن ، وأن هناك حاجة فعلية لوجود شخص مثلي ، قريب من العائلة ، يدير تجارة الملابس .

عادت حنان بعلبة السجائر ، فأشرت إليها أن تتركنا . قلت له إن الأمريكان انسحبوا بسرعة هذه المرة ، ومن الحكمة عدم المبالغة في تقييم الأمر . وجدته يضحك بتكلف وهو يخبرني أنهم ما جاءوا بمهمة تفتيش عادية . وأن علي أن أكون واقعيا ، وقال ، ممعنا في استفزازي ، أنهم استطلعوا المكان ليس إلا ، وأنهم سيعودون مجددا . اتخذ مظهرا جادا وواصل كلامه بعد أن استند بكفه على المنضدة :

ـ أخي عمار يريد أن نأخذ حنان والأولاد ريثما تجد الحل المناسب . لستُ مع هذا مطلقا ولكن أرى أن من الضروري أن تعطي الانطباع بأنك تبذل جهدا من أجل ألا يلحق الأذى بك وبعائلتك . أنت تعتقد أننا نريد التحكم بحياتك وهذا غير صحيح . نحن بعلاقاتنا الواسعة نوفر الحماية لك ولأختنا . لا تزعل مني ولكن عليك أن تقدّر الموقف . نحن ندفع نقودا حلوة من أجل ضمان سلامتنا . تحركاتك هنا وهناك مؤمنة رغم أننا لا نؤمن أن مهنتك تستحق كل هذا . ما نقوم به قد لا تكون له قيمة تذكر إذا وصل الأمر إلى الأمريكان . النقود قد لا تنفع في موقف كهذا .

غرست بين عينيه مسمارا بطول سبعة إنش :

ـ هذا غير صحيح . أنت وإخوتك تدفعون المال للتعبير عن الولاء .

تضاربت نظراتنا وبدا غير متيقن من قصدي . عدت لأقول موجها إليه سبابتي :

ـ أنا لا أحتاج حمايتك .

ـ أنت على قيد الحياة بسبب سخاء عائلة الهدوان . جلوسك ها هنا مدفوع الثمن .

ـ لم أطلب منكم هذا وأعتقد أن مصروفات بقائي على قيد الحياة أنا من يدفعها . أنا من اشترى البيض والجبن والخبز ومربى الجزر . اتركوني أموت بعاري يا حسن . قل لعمار هذا . قل له إنني أريد أن أموت بعار الخيانة .

نقر بإصبعه على المنضدة وقال :

ـ أنت صديقي قبل أن تكون زوج أختي . ربما عمار يتحكم بأشياء كثيرة ولكنك تعرف أنني أقدرك واحترمك .

ـ ستقعان أنت وعمار في المزيد من الإحراج بسببي لذا لا تسرفا في حمايتي ووفرا نقودكما . أنا لن أشارك في غسيل الأموال الذي تقومان به مع ابن خالتكما خالد وزوجته الأمريكية ، ولن أستطيع أن أربي لحية شبيهة بلحية عمار ، ولا أملك المال كي أذهب مثلكما كل عام إلى العمرة . أما حنان فهي حرة . لن أعترض إذا ما اختارت أن تذهب معكما .

أكلتُ المزيد من الخبز مفتعلا التلذذ . أعتقد أنه نطق بكل

ما جهز نفسه لقوله . شد قامته ونادى على أخته . كثيرا ما تحزنني تلك الحوارات والهمسات الجانبية التي تجريها حنان مع إخوتها وأجدها تنم عن عدم انتماء لي . تظهر لهفة وتشبثا فيهما غدر . ألصقت على وجهي ابتسامة بلهاء بينما حنان ترجوه أن يبقى ليأكل من كعكها .

أكثر ما أغاظني أن الأمريكان دمروا قمصاني المكوية . لم يستغرق الأمر أكثر من ساعة ونصف إلا أنهم نفذوا الاقتحام بطريقة هجومية وعبثوا بغرفة نومي مخلفين الدمار الذي تتطلبه التعاسة . كانوا ثلاثة جنود جدد جاءت بهم عربة striker مدرعة بالطين في الساعة الثانية والنصف فجرا لتأدية واجب مراقبة سرعان ما تراجعوا عنه بابتسامات معتذرة . هكذا ببساطة يمكن أن أقع في مصيبة غير منتظرة . بدت غرفة النوم شديدة البرودة ومغبرة . كانوا قد أعادوا السرير إلى مكانه بطريقة سيئة وتركوا لوح الهيكل الأيسر غير مربوط . شاهدت الستارة الخضراء متهدلة من طرفها وعالقة بمقبض الشباك . وجدت غلاف رواية موبي ديك وقد قطع طوليا بأداة حادة ، ويبدو أنهم استخدموا الكتاب كقاعدة لشيء ما فقد ظهرت دائرة مقعرة في وسطه . ملابسي رأيتها مكومة في الدولاب ومطعونة بسكين ، وثمة دبابيس كنت أحتفظ بها في درج الكوميدينو وجدتها متناثرة على الأرض وقد سحقت علبتها .

ارتديت ملابسي في غرفة المعيشة وجهزت حقيبتي . انتشلت أوراقي من حقيبة الأمومة الأسفنجية ورزمتها بجورب

مـأتمي طويل . كـانت حنان قـد أفـرغت في لحظة خـاطفـة الكوميدينو الخاص بي حيث توجد بيانات الجيش الأمريكي ، ودفـاتر مـلاحظات تضم تخطيطات أوليـة لقـصص إخـبـارية ، ومـغلف يحـتـوي مـعلومـات مـفـصلة عن الفـرقـة العـاملة في الموصل ، وهو إصـدار تذكـاري وزع على العـاملين في مـبنى المحافظة ، وأخذته من مدير الإعلام لقاء علبة سجائر . لا أدري متى فعلت حنان هذا ولكنها كانت سريعة ومتحكمة بذاكرتها حتى إنها نظفت جيوبي من بطاقات التعريف الكاذبة والهويات المزورة التي استخدمها لخداع نقاط التفتيش ورجال أمن مبنى المحافظة .

جلست بانكماش منكسر إلى منضدة الطعام في المطبخ . التـهـمتُ بيضتي المسلوقة ، وأكلتُ مربى الجزر التي أحبـهـا ، وأخـذت أشـرب الشـاي في جـو مـفـرغ من الثـقـة ، مـتـجـاهلا الكعك الذي بدا مـحـمـصـا وقـوي الرائحـة . كـانت حنان قـد عقصت شعرها على شكل ذيل ، وبدت ملامحها الدقيقة أكثر انتـعـاشـا . اكتـفـت بالجبن الأصـفـر ولم تـقـل أكـثـر من عـبـارات إرشـادية ، واسـتـشـارات تخص طعـام الغـداء مـتـجنبـة النـظر في عيني رغم أنني تعمدت استدراجها كثيرا .

سألتها :

ـ هل صعدت إلى الأعلى؟ .

أجابت وهي تصب الشاي لنفسها :

ـ لم يفعلوا الشيء الكثير . هل رأيت الحمّام؟ .

سارعتُ إلى إخبارها أنهم مزقوا البنطلون الجديد بسكين وتجاهلت سؤالها .

ـ سجله في قائمة الأضرار . هذه المرة يجب أن تجعلهم يدفعوا لنا . عليك أن تعد قائمة بخسائرنا ولا تهمل شيئا .إذا كانوا لا يخجلون من استخدام ملابسك الداخلية في تنظيف أحذيتهم فعليك أنت أيضا ألا تخجل من تغريمهم أثمانها .

أكدت لها بأنني سأفعل ذلك ، واستغربت اللامبالاة الأمريكية أمام الأضرار التي يحدثونها والمبالغ الضخمة التي ينفقونها كتعويضات . قالت بأنه جيش مسرف ، وأظهرت مكرا وهي تبالغ بتحريك فكها .

سألتها وأنا أدفع باتجاهها كوب غورباتشوف :

ـ هل تريدين الذهاب إلى بيت أهلك؟ .

ـ سأذهب لنقل أغراضنا .

في العادة هي تتوتر متى ما رأتني وديعا ومتعاونا . قلت دون أن أنظر إليها :

ـ يبدو أنك سمعت ما قلناه أنا وحسن .

حافظت على استقامة ظهرها وثبات رأسها وقالت :

ـ خفت أن تتشاجرا ، فبقيت قريبة ، وهذا الأمر لا علاقة له بكما ، فأنا أخاف على بيتي .

ـ مادمنا سنطبق نظام التعويضات فليس هناك حاجة لنقل أي شيء إلى بيت أهلك .

أعلمتها بخط سيري وتقديراتي حول الوقت الذي احتاجه

لإتمام عملي . لم يشجعها هذا على انتقاد سلوكي مع أخيها ؛ فقلت واصفا فترة الصباح بأنها مقدمة كئيبة ليوم مزدحم بالانفجارات ، والقتلى ، والأخبار الحزينة . وأن من يريد أن يحدثني بشيء مهم عليه أن يختار موعد بدء حظر التجوال المسائي لأنه الوقت الذي يخف فيه تشاؤمي .

تقلباتي العاطفية تزيد من احتقان علاقتي بهذه الأسرة ، فندمي المتكرر كان يعمق في حنان قناعة بطلان ادعاءاتي . ولأن قطر الحياة في هذه المدينة أضيق من عنق قنينة كوكا كولا والشوارع غير كافية ؛ فإنني في كل يوم ألاقي واحدا ينتمي إلى أغصان عائلة الهدوان سريعة التفريخ . كلهم لا يبادرون إلى إلقاء التحية ، ويتظاهرون بعدم الانتباه . إنهم يتشابهون كقطع بسكويت العلبة الواحدة وجميعهم ينظرون إلى مهنتي باحتقار . حتى حنان تميل إلى أنني قد لا أكون الضمان الراسخ لحياتها . واكتشافي أنها أخذت من إخوتها حصتها من ميراث أبيها دون أن تعلمني ، وأنها تحتفظ في البنك برصيد كبير يجعلني أنفر من طيبتي الحمارية .

لعقت شفتها العليا وقالت :

ـ الأمريكان سيعودون مجددا وعليك أن تكون مدركا لخطورة أن تتعرض حياتنا لتهديد كهذا .

سألتها إن كانت تريدني أن أحمل السلاح وأطلق النار عليهم؟ . سحبت حمالة صدرها ، وعدلت من وضع ثديها الأيسر وردت :

ـ استعمل عقلك . أقصد أنك تستطيع أن تستغل معارفك للوصول إلى المسؤولين في مجلس المحافظة . دعك من كلام حسن . عليك أن تبحث لنا عن شخص يقدر على منع الأمريكان من المجيء مرة أخرى .

ـ جورج بوش وحده من يقدر على فعل ذلك .

ـ كف عن السخرية .

ـ أين دماغك؟ . البلد محتل ولا يوجد من يجرؤ على أن يتنفس أمام جندي أمريكي .

شبكت أصابعها تحت ذقنها وقالت :

ـ تكلم مع رامسفيلد .

ـ ما رأيك بكوندليزا رايس؟ . إنها أقوى وقادرة على إخصاء أكبر شارب .

ـ أنا لا أمزح . الرجل يأتي كل شهر تقريبا وأنت صحفي وتعمل لمصلحة جريدة بغدادية مرموقة ، ويمكنك بسهولة أن تقابله في زيارة من الزيارات التي يقوم بها إلى الموصل . لماذا تستهين بنفسك .

ـ على عيني ورأسي ولكن هذا يكلفني حياتي . إذا كنتُ لا أتمكن من الاتصال تلفونيا بقائد شرطتنا خوفا من أن يغتالني احدهم فكيف أجرؤ على مقابلة وزير الدفاع الأمريكي؟ .

ـ يبدو أن شجاعتك لا تظهر إلا أمام أخي حسن .

عادت لتقول مخففة من وقع كلامها :

ـ استخدم الأسلوب الذي تستعمله في عملك .

قلت بجدية :

- توجد كتيبة من الأصدقاء يمدون لي العون في الحصول على المعلومات . إنهم يساعدونني لأنهم يعتقدون أنني لا أنتمي إلى عالمهم الرتيب ، وأنني بهذه المخاطرة وهذه الأحلام المجنونة أحقق لهم مشاركة مثيرة تكسر حاجز الخوف الذي يتلبسهم . إنه نوع من إشباع الفضول . كما أن الأخ حسن يدفع المال كي يؤمن لي الطريق ، وخالتي فطومة تساعدني في إحصاء صواريخ الكاتيوشا التي تسقط على المطار ، وفي مبنى المحافظة هناك من يعتقد أنه أبرم صفقة مربحة معي أقوم فيها بتقديم صورة سياسية نظيفة لقاء ضمان سرية تحركاتي . كما ترين أنا لست الصحفي الشجاع والمرموق الذي يمكن له مقابلة رامسفيلد متى أراد .

بالغت حنان مجددا بتحريك فكها وكأنني كلمت حائطا .

رسالة توفيق

أخذتُ مناسك من بيت خالتها سعدية في محلة الشيخ أبو العلا ، وتوغلنا في أزقة ضيقة لنختصر الطريق إلى صيدلية بلسم في شارع السرجخانة ، وهو المكان الذي اختارته امرأة تدعى سندس كي تلتقيني فيه وتسلمني رسالة تحملها من توفيق الحداد .

خمنتُ أن دقتي البصرية يمكن لها تحصيل استنتاجات إضافية لذلك رفضتُ أن تنوب مناسك عني وتحملتُ شتائمها وهي تركل ما تصادفه من مكورات . كانت المدينة القديمة تجعلني أسامح قباحة ذوقها في انتقاء ملابسها التنكرية ، وأتجاهل طريقة مشيتها ، واستفزازات عدم تحسسها الروائح البشرية المقيتة . أحببت فكرتها عن التأمين على حياتنا بأن نعقد اجتماعاتنا في الأزقة ونحن نمشي . كانت أحياء باب لكش ، والميدان ، والرابعية ، والخاتونية ، محصنة بفقرها واختناقاتها ، وخارجة عن مديات قنص الموت ، وكنا نقطع مسافات طويلة بأقدام متوجعة ونحن نراجع خطط العمل ونتخذ قراراتنا بما تشيعه فينا الأبواب المفتوحة .

استولت مناسك على كل الأعمال التي لا يستوعبها وقتي وأظهرت ، اعتمادا على ليونتها وموهبة فضولها الشعبي ، براعة في جعل الأمر يبدو كنشاط سكرتاري يخضع لقانون الطوارئ . كانت تفتح بريدي الالكتروني وتتولى بنفسها ، دون الرجوع إلي ، الرد على ما تعتقد أنها توجيهات حمقاء من هيئة تحرير الجريدة ، وتعقد صفقات تبادل المعلومات مع مراسلي القنوات الفضائية ، وترسل انتقادات لاذعة ، وشتائم رجالية إلى مراكز إعلامية تابعة للجيش الأمريكي عبر إيميلات مختلقة ، تستخدمها لمرة واحدة ، وتقول عن ذلك إنه تنفيس عن غل ما قبل الموت . كانت تعرف كيف ترضي نزعتي الكلاس ، وتدرك أنني أقدّر لها تضحياتها في أن تكون مختلفة تماما عن كل نساء الموصل . تجتهد في أن تكون لينة مثل أخيلتي ومستعدة في كل لحظة للإيمان بما أفكر . لديها حس عميق بالتباهي ، توجهه لذاتها ، وكأنها تقف أمام مرآة . تنتشي بإلهام التوهج العارض فتبدو ، ونحن بين الناس ، منفصلة عن العالم ومأخوذة بزهوها الباطني ، وكأن الكون كله موسيقى . تتفقدني حواسها بين لحظة وأخرى ، وحين تغالي ، بحكم العمل والاندماج بالحياة اليومية ، في أن تكون مثل النساء المحافظات ، أجدها ترتد إلى وجودي ، وتستعمل حكمتها الأنثوية وطاقتها الإغوائية كي تستعيدني بسرعة . كانت ترفض اعتراضي على عبوديتها العاطفية ، وترى أنني واقع تحت قهر تسلط حنان وعائلتها ، وأن علي أن أتمتع بأنوثتها الذليلة كي آخذ حقي من الدنيا . تنتهز

شرودي المهني لتحمل عني محفظة أوراقي وموبايلي وعلبة سجائري وهي مبتهجة ، وقلبها بحجم بطيخة لإيمانها المطلق أن المرأة خلقت لمناهضة شراسة الحياة والرجل ليروح عن بيضتيه . عملنا معا في مبنى واحد . أنا في التلفزيون أعد النشرات الإخبارية وهي في الإذاعة تترجم مقتطفات مما أعده لتقرأه في نشرة منتصف النهار باللغة الانكليزية . تركنا العمل معا هربا من القصف اليومي الذي يتعرض له المبنى بقذائف الهاون ، وتمكنتُ من إيجاد مكان لها في صحيفة مستقبل العراق الأسبوعية قبل أن أستعين بها في عملي مع صحيفة الغد البغدادية .

أعلمتني مناسك أنها تحتفظ لي بمغلف يحتوي ترجمتها لمقالة بوب وودورد الأخيرة المنشورة في الواشنطن بوست ، وقائمة بأسماء سبع منظمات مجتمع مدني تقول عنها هيئة تحرير الغد إنها منظمات حقيقية تستحق الإشادة ، وأبلغتني أنها تلقت اتصالا من الميجر ويمبر بروس يدعوها إلى حضور مراسيم تسليم خمسين ألف كتاب إلى جامعة الموصل كان ويمبر قد جمعها من لويزيانا كهدايا من الشعب الأمريكي .

طلبت منها ، ونحن نقطع آخر زقاق يتصل بالشارع العام ، أن تقف على الرصيف المقابل ، وأن تراقبني وتتصل بإبراهيم توسان إذا ما تعرضت للاختطاف أو لمحت شيئا مريبا . رفعت مناسك حقيبة يدها إلى مستوى صدري وأرتني مسدسا صغيرا يستقر في عمقها ، وقالت إن به أربع رصاصات ستطلقها في

قلب من يلمسني .

كنت أعرف أن الرسالة لها صلة بأخي كمال فقد استغرق إيصال المعلومة قرابة شهر عن طريق نرمين ، شقيقة توفيق الحداد ، التي لـمّحت ، عبر اتصالات هاتفية عدة من حلب ، إلى أن أخي كمال بات صديقا مقربا لعائلة الحداد ، وأنه أمضى شهرين في العاصمة الألمانية ، وأن نسرين زوجة كمال أنجبت ابنها الثاني هناك . وأرسلت لي نرمين صورا مفعمة بالحفاوة ، على بريدي الالكتروني ، يظهر كمال ، في إحداها ، وذراعه على كتف توفيق وهما يقفان أمام جدارية آشورية من ممتلكات متحف برلين .

لم تكن علاقة كمال وتوفيق وليدة هجرتهما إلى ألمانيا ، فبعد مرور خمس سنوات على مغادرة توفيق البلاد إلى تركيا بطريقة غير مشروعة ، عاد إلى العراق عام ٢٠٠١ ليستقر في مدينة زاخو بصفته وكيلا لشركة سورية لبنانية متخصصة بالصناعات الدوائية ، وفي تلك السنة كان واضحا أن كمال على صلة قوية بصديق طفولتي ، وأنهما يتاجران معا بأشياء كثيرة ، ومصالحهما متعاقدة بشكل وثيق . كان كمال وقتها قد صار مديرا لمفتشية آثار الموصل ، بعد أن قضى سنوات يعمل ضمن لجنة عالية التفويض مهمتها الكشف على مواقع اختيرت لتكون قصورا ومنتجعات رئاسية . يقود مجموعة من الحفارين مهمتهم التنقيب في الأراضي قبل الشروع بالبناء ، وينقل إلى ديوان رئاسة الجمهورية قطعا آثارية جعلته يعاني

الصدمة طوال عام قبل أن تخف انفعالاته وينشغل ببناء بيت أحلامه على مساحة ألف متر من أرض مملوكة للمفتشية ، وتطل على منطقة الغابات السياحية . لقاء كمال وتوفيق الأول كان في عمّان عام ١٩٩٨ . جمعتهما المصادفة في فندق ماريوت حين كان شقيقي موفدا لحضور مؤتمر ترعاه اليونسكو وقد نقل لي رسالة من توفيق يشرح فيها ما وقع له ولأسرته في تركيا واليونان ، قبل أن يستقر بهم المقام في سوريا ويستثمر علاقات والدته اللبنانية في العمل في المجال الدوائي ، ويرتبط بمشاريع استثمارية مع الأكراد . حذرني كمال من الاتصال بتوفيق وأخبرني أنه لولا علاقته الطيبة بضابط المخابرات المرافق للوفد والمتنكر بصفة أكاديمية لما جازف من أجل صداقة صبيانية كهذه . أرشدني توفيق ، في رسالته ، إلى كيفية مغادرة العراق ، موحيا بضمانات نجاح مؤكدة ، ولكنني وقتها كنت مصدوما بالصورة الجديدة للصديق العتيق ، والتي لا تتوافق مع ذلك الذي عاصر عثراتي الدراسية كلها ، وكان المرشد العاطفي في كل أوهامي المبكرة . بعدها بسنتين أصر كمال أن أتزوج حنان ابنة سفير سابق في زمن الرئيس أحمد حسن البكر ، وكانت تلك صفقته الكبرى في سلسلة من الارتباطات مع ضباط كبار في الجيش جعلتنا ، نحن الأسرة التي تعيش بخيرات كمال ، نمتثل للمتغيرات الجديدة ونتبع نزواته التوسعية التي أثمرت عن إنقاذ أختي ماجدة من تعاسة عنوستها ، غير أن عام ٢٠٠٣ شهد مفاجأة لا تقل حجما عن

رؤية الأمريكان في الشوارع وهي وصول توفيق إلى الموصل ، عشية استسلامها ، ونزوله ضيفا في بيت أسرتنا .

لم يستغرق الأمر مع السيدة سندس أكثر من دقيقتين فقد ترجلت من سيارة نوع بي . أم . دبليو سوداء وتوجهت نحوي مباشرة . كانت أربعينية ولكنها بأنوثة ممغنطة ، ترتدي تيورا بنفسجيا وتضع عطرا غاليا . كانت تعرف أنها لا تناسب الشارع ووجودها يتعارض مع كآبة التراث فقالت إنها ستلتقيني في موعد آخر ، وإنها يجب أن تنجز هذا قبل أن تنقلب الدنيا ، وأعطتني حقيبة زرقاء من الكتان عليها ماركة زلاطيمو للحلويات وسلمتني مغلفا مذهبا .

سألتني مناسك وهي تلقي نظرة على محتويات الحقيبة إن كنت قد خرجت باستنتاجات أخرى غير الأدوية ومقويات Omega 3 وعلبة حلويات Quality Street؟ .

فتحت الرسالة ثم قلت لها ما إن انتهيت من القراءة :

ـ نعم . . إنهم يريدون قلادة الملكة شمشو .

***

سوق باب الجسر كان منتعشا ، وفي الأجواء غيمة سوداء أسقطت ظلا على الأبنية العتيقة ، فبدت منارة جامع الأغوات ندية الانحناء وبارزة العروق . هاجمتني تيارات هوائية باردة من جهة الكورنيش الذي كان مختنقا بالسيارات وعربات الحمالين . انعطفت متعمقا في سوق السراي وأنا أتحرك بين بسطات الباعة متجنبا برك الوحل بحثا عن منفذ يوصلني إلى

دكاكين المواد الغذائية .

وجدت إبراهيم توسان يضرب على آلة حاسبة وبجواره تجلس امرأة عجوز بيضاء مطموسة الشفتين تشد رأسها بعصابة زرقاء ، على طريقة مسيحيات القرى الشرقية ، تتفحص بضاعة اشترتها وتدقق في قطعة من الورق المقوى . أشار لي أن أصعد . تسلقت السلم الحديدي نحو المخزن العلوي بينما العجوز تحلف بمحمد معترضة على الحساب ، وإبراهيم يرد عليها باللغة السورثية حالفا بروح المسيح .

رأيت يوسف وفتحي وقد جلسا متجاورين كثورين مجنحين . السقف المنخفض يوحي بالكآبة بينما الهواء الراكد يصبغهما بالزرقة . كانا بعمر متقارب إلا أن يوسف يبدو ، بوجهه المتيبس ، أكثر توغلا في الخمسين . ضرب فتحي كرشه معاينا انتفاخه المعوي المزمن وسألني عن الذي أنجزته من مشروع قصر بني ؛ فأخبرته أن الترميمات اكتملت ، وأن عليه إضافة ثلاثة ملايين دينار على الميزانية المقررة للديكور . نهض يوسف بحذر نافضا يديه فبدا لي مثل قنفذ استشعر الخطر . تمعن في وجهي قبل أن يضبط نغمة صوته الموشحي ، قائلا بأنه اطلع على تقريري الأخير وهو مقتنع أن مكتبة بانيبال يجب أن تحوز على رعاية فخمة . خنق فتحي ضحكته فتابع يوسف قائلا إنه يقصد أن مجلس الأمناء أجمع على هذا الرأي ، وقرر أن يتم دفع إيجار المكتبة مدة عام ، والاكتفاء باستيراد الكتب من بيروت ، مع تأجيل البت في مشروع فتح مكتبة جديدة إلى العام المقبل .

حاولت الدفاع عن فكرتي موضحا أن هوية شارع الدواسة ثقافية ، والشارع فقد في السنوات الأخيرة كل مكتباته وبانيبال هي الأخيرة ، ونحن بحاجة إلى مكتبتين إضافيتين . تدخل فتحي قائلا بأن بانيبال كبيرة المساحة ، وتقع في منتصف الشارع ، وإذا استوردنا الكتب وقدمناها إلى صاحب المكتبة دون مقابل مع دفع الإيجار فإن ذلك سيكون كافيا .

لم أخف خيبتي . حاولت إفهامهما أن بانيبال متخصصة ببيع الكتب القديمة ، وأن فتح مكتبة بمواصفات حديثة في الشارع هو التحدي الأكبر .

نظرا إلى بعضهما ثم قال يوسف :

ـ لقد تمت الموافقة على تخصيص مبلغ ثمانية آلاف دولار لاستيراد الكتب .

سألته :

ـ وماذا عن سينما الأندلس؟

رد فتحي :

ـ أعتقد أن السيد صافي يريد التريث قليلا فمشروع السينما ليس بأهمية مشاريع أخرى نعمل على تنفيذها . إنها قضية حساسة ونحن لا نريد تعريض أرواح الناس للخطر .

ـ يبدو أن السيد صافي لم يقرأ التقرير . ما علاقة أرواح الناس بما كتبته؟ إنهم يريدون تحويل مبنى السينما إلى مخازن . وعلينا أن نمنع هذا .

قال يوسف :

ـ إنه أمر وقتي فما إن يزول العنف حتى تعود السينمات إلى الحياة من جديد .

وددت أن ألكمه في عينه :

ـ هل سمعت يوما أن شيئا في بلادنا عاد كما كان؟

نهض فتحي . أوقفه أنين الأرضية الخشبية بعد خطوة واحدة . حضوره يشعرني بالطمأنينة ، لكنني أجده اتكاليا ، ويسعى بسرعة إلى الخلاص من الأثقال بأي طريقة كانت . ويوسف هو الآخر أراه يفتقد إلى العمق . يمتلك موهبة مراقب بلدية ، ولا يصلح أن يكون عضوا في منظمتنا السرية .

سألني فتحي :

ـ هل توصلت إلى معلومات بشأن الميجر ويمبر؟

ضايقني السؤال وكرهت أن أتعرض إلى استجواب غبي :

ـ هو رجل له سمعة طيبة ولديه مؤلفات في علم الاجتماع ، وما قام به مع جامعة الموصل جاء بمجهود شخصي . هناك من تعاون معه من أساتذة الجامعة .

قال يوسف :

ـ ويمبر يجيد العربية . أذكر أنك قلت هذا .

ـ يتكلمها باللهجة المصرية .

برز رأس إبراهيم من فتحة السلم وقال قبل أن يكمل ظهوره :

ـ ستخربون البلد يا ملاعين .

اندفع نحوي وجرني إليه بقبضة قوية مقبّلا كتفي .

إبراهيم هو الوحيد الباقي لي من ذكريات مرحلة الطفولة . قصير القامة ببشرة حمراء وشعر أشقر . دقيق في حلاقة الذقن والشارب ومظهره لا يتجانس مع مهنته . يستعمل ، كلما لقيته ، طريقة ترحيب ولكنة تختلف عن المرة السابقة ، مقلدا ثقافات المتبضعين من مزارعي الأقضية الشمالية والسهل الشرقي . ورغم ميله إلى طبقة الأغنياء الجدد المتأثرين بطبائع تجار حلب إلا أنه لا يهتم بالجذور ، ولا يظهر أي احترام لحقيقة أنه من القاطنين الأوائل لمنطقة الطيران الراقية والغصن الأخير من عائلة ليبرالية عاشت عصامية حتى تفرقت في أوربا مع بداية حرب إيران . اختار أن يبقى مع أمه الأرملة في الموصل ويسلم نفسه إلى الكلية العسكرية حتى وصل إلى رتبة نقيب قبل أن يسرحه الأمريكان ويبرع ، دون أسف أو حسرة ، في بيع المعلبات والمعكرونة ومعجون الطماطة الذي أكسبه لقب توسان نسبة إلى العلامة التجارية التركية .

سلمني ورقة مطوية أخرجها من جيب بنطاله الخلفي ، وقال إن فيها معلومات عن انفجارين بسيارتين مفخختين في تلعفر وسنجار ، وأخبرني أن القاعدة علقت على حائط جامع النبي شيت قائمة بأسماء أشخاص يتعاملون مع الأمريكان وهو إنذار أخير موجه إليهم ، وهناك أيضا إعلانات بخط اليد لأشخاص أعلنوا التوبة .

نظر إبراهيم إلى يوسف وقال :

ـ لست مع فكرة المكتبة . السوق في أسوأ حالاته وأخشى

أن يمتنع التجار عن الدفع ، وفي المقابل علينا ألا نسرف . شبابنا يقعون في شباك المليشيات والجريمة المنظمة ونحن مازلنا نقدس التأريخ الخيري للمنظمة . لقد قمنا بمشاريع مربحة عديدة ، ووظفنا الكثير من العاطلين ، وأرى أن هذا التوجه هو الأسلم ، ولكن انظروا ماذا حدث لنا حين أسسنا الفرقة المسرحية وأقمنا معرض الرسم . أنا سأقول رأيي بصراحة أمام السيد صافي .

قال فتحي وهو يرفع بنطلونه :

ـ اغتيال الدكتور حازم لا علاقة له بنشاطنا الثقافي .

أيده يوسف وهو يقترب من فتحة السلم . صافحني فتحي وقال إن السيد صافي ينتظرني يوم الأربعاء القادم في بيته .

لم أحصل من إبراهيم على تفسير مقنع لاعتراضه . بدا قلقا وهو يحدثني عن الابتزازات التي يتعرض لها التجار ، وكيف أن الأمور تعقدت ، وأن البضائع لا تدخل البلد بيسر بسبب سيطرة العشائر على منفذ ربيعة الحدودي ، وأن ضباطا أمريكان انضموا إلى مافيات شيوخ العشائر الذين يفرضون ضرائب نقل وحماية أمنية . سألته إن كان يعاني أزمة مالية فتجاهل سؤالي وقال :

ـ الأمور تعيسة جدا وأنت ومعك هذه البغال تعيشون وكأنكم أبطال ألف ليلة وليلة .

أمسكت علبة بسكويت وأوحيت أنني أنوي فتحها :

ـ سنتان وأنت تعمل على انضمامي إلى الدومنيكوس . ماذا استجد؟

أخذ العلبة من يدي بعصبية وقال بوجه محمر :

ـ يحق لنا أحيانا أن نكره الوطن .

حين يتعكر مزاج إبراهيم فمعنى هذا أن هناك خطأ ما في العالم أو أن نكبة تحيق بنا تضامنا مع غضبه وانقلاب مزاجه . دائما ما أشعر بالأسف على أننا كثيرا ما نقمع الطيبة في أشخاص يستحقون أن نرفع عنهم كل سخافات الدنيا . انتقدت انغماسه بشؤون التجارة ، وحذرته من أنه يتحول إلى قروي يهوى صفاء الذهن ، وقلت له إنني لا أعرف الكثير عن منظمتنا ، ولكنني أشعر بقيمتي ويستهويني أن يكون هناك العشرات من الملائكة السريين يعملون من أجل إنقاذ الحياة .

ازداد انفعاله وهو يشدني من ذراعي :

ـ وما الفائدة من كل هذا؟ حتى وإن بلغ عددنا الملايين . الجرائم التي تقع في الشارع نحن من يرتكبها أولا وأخيرا . أنت الآن تدافع عن المكتبة والسينما ، لكن هل خطر في بالك أنك بالنسبة للناس محض أحمق؟

رغم تطابقنا في السن إلا أن إبراهيم يمثل بالنسبة لي الشخصية الاحتوائية ، وكثيرا ما أجده قريب الشبه بأمي . نبهته إلى أنني غير قادر على فهم ما يقول لأنني في الحقيقة غير قادر على التراجع . إنه أمر يمنحني المتعة . أن أكون عضوا في تنظيم سري له هذه المهابة هو أمر بالنسبة إلي ، على الأقل ، مصدر انتشاء . أحلى ما في إبراهيم أنه في نقاشاته يشبه الطفل الخجول ؛ فمهما تصلب أو أظهر تجبرا في التمسك

برأيه إلا أنه يلين للكلام الحلو ويندمج في موقف آخر معاكس. انقلابه السريع مريح، يشبه إضافة الماء إلى كأس عرق.

قلت له:

ـ الأمريكان رجعوا إلى بيتي بالأمس.

رجوته ألا يستمر على سلبيته، وأن يستعيد موهبة التفكير السليم:

ـ لا تبلغ الدومنيكوس بهذا. أشعر أنْ شيئا ما يحدث، وأن السيد صافي فقد سيطرته على مجلس الأمناء.

استعدت رزانتي وأنا أقول:

ـ قد لا أتمكن من الصمود إذا ما عاد الأمريكان إلى بيتي مرة أخرى.

رد بثقة غريبة:

ـ ضع في بالك أننا مؤهلون لخسارة كل شيء. انتبه إلى نفسك يا جلال ولا تتورط في صناعة الأحلام.

الأرنب الأعور

هبطتُ إلى الطابق الأرضي وثيابي ينقصها بوكسر رالف لورين الإغوائي . لم يكن مجديا التحقق من كارثة عودتهم ، فقد كان ثمة فيل يمارس لعبة قفز الحبل في حديقتنا ، وهي الصورة التي تخلقها مدرعة الـ striker عندما تمشي في شارعنا .

دقت ساعة الباحة التابوتية دقة واحدة وأنا أصعد بالفانوس إلى غرفة النوم . ألقيتُ البطانيات والشراشف إلى أسفل السلم ، وعدت لأحمل كريم ، وحقيبة الأمومة الاسفنجية ، متقدما حنان التي راحت تلهث خلفي ، وهي تصلب ريم على ثدييها .

انتبهنا ، ونحن في غرفة المعيشة ، إلى طرق معدني في الأعلى . سألتني حنان ، وهي تحشر حوضها في سروال احترازي من الستريج ، إن كنا نتعرض لعملية إنزال جوي؟ ارتج قلبي ، وراح إلهام المدفعي يغني في جيبي أنشودة موطني . أعطيت الموبايل لحنان وأخذت منها الفانوس . أعلمتنا جارتنا أم ياسين أن ابنها يجلس في شرفة بيتهم المحاذية لغرفة نومنا ، وأن ابن المختار شغّل مولدته الكهربائية وربطها بالجرسين . خيل

إلي ، وأنا أصعد السلم ، أنني أسمع أصواتا بإيقاع الجاز . فتحتُ باب السطح لأجد ثلاثة جنود أمريكان ، يوجهون نحوي بنادق نوع M16 .

ثلاثتهم قالوا لي بصوت ممطوط :

ـ Hi Jalal

كان السيرجنت مايكل بينهم ، وهو في كل غزوة يبدو لي أضخم من التي قبلها ، وأعمق سوادا . دفعني دون أي استذكار لودنا القديم ، فتقدمتهم نازلا السلم على عجل . غرز فوهة البندقية ، لمرتين ، في ظهري ، وكأننا لم نأكل ماعون بامياء باردة معا ، ولم نشرب الشاي أثناء تأدية الواجب ، ولم ندخن السجائر على طريقة الهيبز مطلقا .

سرنا على شكل قطار باتجاه باب الحوش . كانت المدرعة المقفّصة striker ترقد في شارعنا الهلالي ، المعروف عند الباعة المتجولين بشارع الأرامل ، وحولها أربعة جنود . كشفت الغيوم عن خد القمر ، فسقطت حيث وقفنا ، أنا ومايكل ، أشعة فضية برّزت بيتي البرتقالي بجبهته المتعالية بين بيتي أم ياسين ، وأم جعفر . تفرق الجنود بإشارة آمرة لتفتيش الخط الأخضر المقابل لضلعنا السكني . تمنيتُ في بطني أن يحافظوا على أحذيتهم ، وملابسهم ، وألا تدفعهم الطاعة القتالية إلى المبالغة والهبوط إلى الساحة الترابية التي تفصلنا عن الشارع العام ، وتستخدم ملعبا شعبيا لصبيان الحي . شدني السيرجنت مايكل إليه ، ورحنا ، كما القياصرة المغرورين ، نراقب همة

الجنود الذين دخلوا بيتي مخلفين في أنفي رائحة بازيلاء معلبة .

عودة الكهرباء طيرت الكثير من الإجراءات المملة . كانت كثافتهم العسكرية أكبر من الفراغات في الباحة الداخلية . توقعت أن يبتسم مايكل ، ولكنه رفع ذراعي ، وأدارني دورة كاملة ثم لصقني بعضادة باب غرفة الاستقبال . أخذت ملامحه الإفريقية المتورمة تنز دهنا لامعا بينما أنا بكامل استسلامي ، وعلى ثقة من أنني لم أحك أنفي ، ولم أضع يدي في جيبي ، ولم أطلق غازا معيبا . قام أنحف الجنود بأخذ بصماتي على ورقة حساسة ، لمعرفة إن كنت قد لمست متفجرات . فهمت أنهم يقومون بعملية اسمها الأرنب الأعور .حذرني مايكل من مغادرة البيت ، ومن استخدام الهاتف الأرضي ، أو الموبايل . بعدها قال كلاما إنكليزيا ليست فيه كلمة واحدة أعرفها ، ولكنني بالغتُ بإيماءاتي السريعة لأشعره أنني أعرف المطلوب . قلت ببلاهة : o.k وأنا أسمع الـ striker تعطس فجأة .

عاونتُ جنديا على تفريغ صندوق ألعاب كريم الموضوع تحت السلم ، ثم انسحبتُ مقتربا من غرفة المعيشة . استطعت تمييز جنود سبق لهم تنفيذ واجبات في بيتي . ناداني السيرجنت مايكل فلحقت به إلى المطبخ . جرني خلفه بينما عيني على جندي أكرهه يقول لي دائما : fuck you .

وحده مايكل الذي لا ينزعج من ردي بالعربية ، التي لا

يعرفها ، على كلامه الإنكليزي ، الذي لا أعرفه ، ويبتهج إذا ما قلت شيئا بسيطا بلغته . وجدته يقف باندهاش وحب ، كما في مرات عدة سابقة ، أمام ثلاجتنا الفستقية ، ماركة westing housc ، المصنوعة مطلع ستينيات القرن العشرين . فتح بابها وتفرج على طعامنا . ألقى نظرة على دواليب المطبخ ، وأخذني إلى الحمام . فتش الغسالة ، وشم عبوات الشامبو . وعندما وصلنا إلى غرفة المعيشة تمهل ، كما في كل مرة ، وتطلع إلي منتظرا أن أقول جملتي الانكليزية المشبعة بالخوف : my wife and my children ، فابتسم وهو يتراجع .

نقلوا قاذفات أنبوبية ، ومناظير ، وأجهزة بشاشات ، وهوائيات ، وصناديق لم يسبق لي رؤيتها . كلفوني بمهمة ترتيب علب الذخيرة . يحدث هذا عندما يكتشفون أنني يمكن أن أكون مفيدا . قبل أربعة أشهر عهدوا إلي بمهمة حمل جهاز مكعب الشكل يصدر صفيرا خافتا كل دقيقة ، وعندما طلبت من مايكل أن ألمس بندقية الـ M16 نهرني بغضب ، وأخذ مني الجهاز ، وجعلني أجلس على الأرض قرابة نصف ساعة تحت حراسة ذلك الذي يقول لي دائما : fuck you . هذه الأمور تحدث عندما ننسى بشكل مفاجئ ، وغامض قوانين العداء التقليدية . أحيانا أجدهم يعيدون ملعقة ساقطة إلى مكانها الطبيعي أو ينجذبون ، في مبادرات حنين عارض وغير مسيطر عليه ، إلى واجب بيتي مثل إرجاع الكراسي إلى منضدة الطعام ، وتنسيق الزهور الاصطناعية في مزهرية منسية .

وضعوا الصناديق الخشبية الكبيرة على السجادة . أما الأسلحة فوزعوها على الأرائك . أغلق السيرجنت مايكل باب المطبخ بالحرص نفسه الذي أقوم به قبل النوم وتجاهلني تماما . أحدهم لمحني وأنا أنظر من طرف أطول قاذفة إلى ما بداخل أنبوبها ، ولكنه لم يعر اهتماما لفعلتي . شاع جو من الألفة ، وأظنهم تبادلوا تعليقات ساخرة حول مظهري المرتبك ، ومحاولتي إبداء التعاون ، حتى إنهم لم ينتبهوا إلى رفعي غطاء أحد الصناديق واكتشافي مجموعة متنوعة من القنابل اليدوية ، وقيامي بإنزال قاذفة مغبرة إلى الأرض خوفا مني على قماش الأريكة ، وتلمسي صاروخا رفيعا ، وعبثي بمنظار لم أتمكن من فتح أغطية عدساته .

رفعوا الأسلحة والصناديق ، وصعدوا إلى غرفة نومي في الأعلى . في السابق كانوا يقولون لي إنهم يريدون البقاء في الغرفة العلوية المطلة على الشارع . يقولون ذلك في نهاية ترديدهم التعليمات الأمنية ، ويصعدون إلى الأعلى بأقل قدر من الاستهانة العسكرية . كانوا يظهرون التزاما أمام مسألة أن تنام الأسرة بطريقة اعتيادية ، ولا يعترضون على بقائي على الأريكة قبالة السلم بكامل يقظتي . يعكسون اطمئنانا متفهما لتحركاتي عند إعداد الشاي أو تناول وجبة خفيفة من الطعام ، وتبادل بعض الحوارات معهم . وكان مايكل يضبط نزوله على لحظة فتحي الثلاجة ، وإخراجي بقايا طعام العشاء . يبدي امتنانا متحفظا لما يشيعه مظهري البيتي في نفسه من مشاعر

مدنية ، إلا أننا ، في الغالب ، نتجاهل ذلك ، ونبقي تفاعلاتنا الإنسانية مشتتة وغامضة . أجده غير متحفظ ولا يبدي أي حذر ، ويستأذنني لكي يتذوق بقايا كبة البرغل والقضاء على شرائح الطماطة اللزجة . يرشدني إلى أطباق حلاوة الشعرية المخبأة ، ويصر على أن أقاسمه خيارة يستلها من الحوض السفلي للثلاجة . طمأنينة الشبع كانت ، في الغالب ، تطيّب الوقت وتحليه ، فنشرب الشاي ونحن نلعب الشطرنج . كنا عادة ما نكتشف ، مع النقلة الأولى ، وجود قدر كبير من الحقد النقي في أنفسنا ، فيشتم أحدنا الآخر بمحبة ، وبلغتين لا تفهم إحداهما الأخرى ، ونبدي عنفا وديا في إزاحة الموتى عن الرقعة الخشبية .

سمعت الـ striker تتحرك مبتعدة عن البيت ما إن انقطع التيار الكهربائي . ارتفعت أصوات الجنود ، وأخذت روائح غريبة تسيح هابطة إلى أريكة مراقبتي . بعدها سمعتهم يسحبون السرير ليتمكنوا من مراقبة الشارع العام من النافذة ، فهم يأملون ، كما قالوا لي يوم جاءوا في المرة الأولى ، أن يلمحوا أحدهم وهو يزرع لغما أو أي شيء آخر .

***

قلت لحنان : افتح يا حنون . وهو السر الليلي الذي يؤكد أنني لست مهددا بسلاح . وجدتها منتفخة بالثياب ، ومشدودة الرأس بمنشفة الحمام وقد أخفت ريم وكريم تحت كومة من البطانيات . أخرجت لها المصباح اليدوي من درج منضدة

التلفزيون مع سكين قابلة للطي وأنا صامت مثل شبح . أخذتُ بطانية ، وعلبة سجائر ، وعدت لأجلس في الباحة قبالة السلم متصيدا الأصوات بينما الساعة الجنائزية تدق معلنة عن الثانية بعد منتصف الليل .

هذه هي الغزوة الثامنة . كان يوم أربعاء حين أنزلتهم المدرعات ، قبل منتصف الليل ، واقتحموا البيت للمرة الأولى في تموز من عام ٢٠٠٥ . حدث ذلك بعد مرور يوم واحد على نشري تقريرا في الصحيفة التي أعمل فيها عن قصف بالصواريخ تعرض له مقر القاعدة الأمريكية في مطار الموصل . ظننتهم جاءوا لاعتقالي . أجلسونا أنا وزوجتي وأطفالي في الباحة الداخلية ، وانشغلوا بمراجعة خرائط والتقاط الصور . جازفت واستعملت الموبايل متصلا بخالتي فطومة لأتأكد إن كانت فعلا قد شاهدت أربعة أشخاص يطلقون ، من ظهر بيتها ، ثلاثة صواريخ كاتيوشا باتجاه المطار . تبين أنهم كانوا بانتظار المترجم ، وهو كردي من كركوك ، طويل القامة ، يعاني هرما مبكرا ، وشيبا وراثيا . جاء برفقة كائن أسود ضخم عرفت بعدها أنه السيرجنت مايكل . سألني المترجم إن كنت أعرف الإنكليزية ، ثم طرح عدة أسئلة عن اسمي الكامل ، وعدد أفراد أسرتي وعملي . أخبرته أنني أعمل على الكومبيوتر في مطبعة أهلية . كانت تلك كذبة عبقرية استعملتها بعد ذلك وشاعت كثيرا . أخبرني أن الأمريكان يريدون مراقبة الشارع العام الذي تفصلنا عنه قطعة أرض واسعة ، وأعلمني أن الأمر

ليست فيه شبهة ، وأنهم لن يؤذوني بل على العكس يقدرون قلقي ويثمنون تعاوني ، وأنهم سيغادرون في الفجر . طلب المترجم بصوت خافت أن أضع زوجتي ، وأطفالي في غرفة في الطابق الأرضي ، وطمأنني أنه سيكون معي طوال الوقت . قال لي ، وعلى وجهه ابتسامة يائسة ، إن الأمريكان قد يكررون الزيارة أكثر من مرة ، ونبهني وحنكه يرتجف :

ـ كن مرئيا ، وواضحا ، ومستسلما ، ولا تحك أنفك ، ولا تضع يدك في جيبك ، ولا تنظر مرتين إلى شيء أمامك ، وحاول ألا تسعل .

كانت نبوءته واقعية ، فقد كرروها ست مرات في ظرف سبعة أسابيع ، ثم غابوا أربعة أشهر قبل أن يقوموا بزيارة سابعة قصيرة كي يعود مايكل بعدها ، ومعه هذه الكمية المرعبة من الأسلحة .

أحضرتُ قنينة مياه معدنية ، ثم عدتُ وقلت افتح يا حنون . استعدتُ رزانتي وأنا أخبر حنان أن الأمريكان جاءوا بأسلحة كثيرة . لمعت الفكرة فجأة في رأسي فعرضت عليها أن أتحدث مع ياسين . فاحت من فمها رائحة تفاح أخضر وهي تحتج :

ـ أنت تكبّر الموضوع . إنهم سعداء بتطفلهم ، وأم ياسين توشك أن تعلمني كيف أخبز وأحلب البقرة . إنني أموت غيظا من إظهارها مخاوف من أن أتعرض إلى الاغتصاب في أية لحظة .

عصرت ثديها لأنظمها :

ـ ماذا لو اتضح أن الأمر ليس مراقبة شارع؟

وقلت لها أيضا إن علينا الرضوخ لنكسة أن الجيران لا يحبون أن نستمر على غموضنا المغرور ، وإن علينا إرغام أنفسنا على تقبل حقيقة أن هناك من يرغب بكسر أنفنا المتكبر لأننا نأكل في المطاعم ، ونرتدي الجينز .

سألتها :

ـ هل بوكسر رالف لورين معك؟

ردت بتشنج :

ـ إنه مع الأمريكان فوق .

أمضيت فترة خمس دقائق للتأكد من أن الجنود في سكون تام قبل أن أضغط على زر جرس صوت القطة الذي خصصه ياسين للتشاور وعقد الاجتماعات ، وأخفيناه خلف منضدة التلفزيون . كانت تلك فكرته وقد طبقناها بناء على تحذيرات المترجم الكردي . فتحت النافذة التي نزعنا عنها حديد الحماية حتى نسهل على حنان الهرب مع الطفلين إلى بيت أم ياسين في حالة شعورها بالخطر ، وهو إجراء يعقب الضغط على جرس صوت البلبل ، الذي إذا ما أطلقته زوجتي فستقوم أم ياسين وكناتها بالصراخ والعويل لإرباك الأمريكان وتغطية هروبها .

قفزتُ إلى الحديقة الخلفية . أعاقتني براميل المخلل الفارغة . أزحت واحدا منها لأتمكن من البقاء لصق الجدار . كانت نوافذ ظهر بيتي تخلو من أي بصيص ضوء . خطوت

بحذر مرتقيا السلم الخشبي الذي أنزله ياسين في حديقتنا بين شجرتي الزيتون . غاص قليلا في الطين قبل أن يثبت . تمكنت بصعوبة من السيطرة على جسمي الثقيل بينما أنفي يلتقط روائح فاكهة عطنة ودخان مولدات كهربائية . بسبس لي ياسين قبل أن يمسك بكاحلي ويساعدني على النزول إلى حديقة بيته . أحدثت حركتي فتقا في سروالي الرياضي ، وشعرت بخدش حارق في مؤخرتي ، وهيمن الإحباط على نفسيتي من أنني لم أعد لائقا للمغامرات .

تبادلنا تحية مشفرة على طريقة ثوار انتفاضة ١٩٣٧ العسكرية ثم جرني إلى ركن يصله ضوء من نافذة قريبة ، وقرفصنا تحت شجرة برتقال . كان ياسين يرتدي الزي الوطني لقصابي باب لكش : المقطني فوق الشروال ، وقد لف رأسه بشماغ أسود . وضع الكلاشنكوف في حضنه وانهمك في إشعال سيجارتين ثبتهما بفمه على طريقة الخبازين . هو في الأربعين ، ولكنه نزق وأحمق مثل عنزة ، ضيق الجبين ، بذقن حاد ، وعينين أنثويتين . لم أنظر أبدا بجدية إلى وجوده إلا بعد موقفه معي يوم جاء الأمريكان إلى بيتي في المرة الأولى ، وأظنه كان يدرك هذا دون تحسس ، وانتظر طويلا ، بصبر عنكبوت ، فرصة أن أقع في أزمة كي ينقض ، ويبرهن لي كم أنا متعجرف . أفهمته أن الأمريكان جاءوا هذه المرة بأسلحة غريبة ، وأنني طلبت الاجتماع به بناء على تقديري لخطورة الموقف .

أمسكني من ركبتي ، وأدار جسده نحوي . قلت موضحا :

ـ جاءوا بقاذفات أنبوبية متنوعة ، وذخائر ، وأجهزة لم أرها من قبل . أخبروني أنهم يقومون بعملية عسكرية اسمها الأرنب الأعور .

فكر قليلا ثم قال :

ـ قد تكون أنت الأرنب الأعور؟ .

نبهته إلى أن وضعي لا يحتمل المزاح ، وبسّطت له استنتاجي :

ـ ربما هي بداية لعملية عسكرية كبيرة ونحن لا ندري .

أمسك بعود وراح يخطط الطين ، بين قدميه ، وقال :

ـ إسمع مني . يجب أن نتحرك بسرعة . أخشى أن يكون وجودهم هنا بمثابة فخ . ربما يريدون لأحدهم أن يتحرش بهم . لا تستبعد أن يفكروا بهذه الطريقة .

تلاشت حماستي إلا أنني حافظت على صلتي الروحية بالأحراش وبمظهر ياسين القتالي :

ـ ماذا تقصد بالتحرك؟ . ماذا علينا أن نفعل؟ .

ـ الأجهزة التي رأيتها يمكن أن تكون أجهزة تنصت ، وليس ببعيد أنهم يسمعون كلامنا الآن . إسمع مني . كن طبيعيا معهم ، وحاول أن تجاملهم . أنت مثقف ، وأكيد تعرف كيف تستدرجهم بالكلام الحلو .

نهض واقفا وتطلع بوضع مائل إلى الجهة الخلفية من بيتي . سحبته من طرف المقطني :

ـ أتظن أنهم يمكن أن يخبروني بحقيقة الأمر؟ إما أنك تبالغ في التقدير أو أنك تشك بي؟

رد بارتباك :

ـ لا هذا ولا ذاك . منذ أشهر لم تنفجر أية عبوة ناسفة هنا ، ولا أحد استهدف أرتالهم ، وأنت قلت توا إنهم في عملية اسمها الأرنب الأعور ، ومعنى ذلك أنهم هذه المرة في مهمة مختلفة .

ـ أنا رجل في محنة . هل تعتقد أنني على استعداد لفهم الأمور بالطريقة التي تتحدث عنها؟ يوجد جيش في بيتي الآن يعرضنا إلى خطر مميت . أنا لا أستطيع الربط بين وجود الأمريكان في بيتي وبين ما يحدث في الخارج ، وبصراحة بدأت أخاف منك يا ياسين . أنت تتكلم بطريقة غامضة وتزجني في موقف آخر غير الذي أنا فيه ، وتعطيني إشارات تشتتني وتزيدني رعبا . أنا لا أستبعد أن تظن بأنني جئت بالأمريكان إلى هنا ، وأنني أتعاون معهم .

ـ لا تفهمني غلط . أنا أخاف عليك من الذين لا يخافون الله . موسيقى البوب تخرج من نوافذ بيتك يا أستاذ جلال .

ـ كيف عرفت أنها موسيقى البوب؟

ـ أنا لا أعرف غير موسيقى سعدي الحلي ولكن هذه هي الكلمة المثقفة الوحيدة التي أحفظها .

لم أكن واثقا من أن مجازفتي قد رسخت في وجدان ياسين أنني فوق الشبهات حقا ؛ فقلت له إنني أشعر بالذل لأن

الأمريكان في بيتي وهذا يجعلني أتعاطف كثيرا مع الوطن في حظه العاثر ، فتحمس وقال إنه سيعلمني بكل ما يقال عني ، وأن بإمكاني الاعتماد عليه في كل شيء .

لم أقل شيئا لحنان . عدت إلى الباحة الداخلية بعد أن تفقدت السلم وتيقنت من أن الهمسات النازلة مطمئنة وطبيعية . استبعدت أن يكون ياسين قد لمّح إلى شيء ما أو أنه على علم بمهنتي الحقيقية ؛ فهو مهووس بالشخصية الأمنية والمخابراتية الكلاسيكية ، ويحاول دائما أن يعطي الانطباع بأنه أكثر من قصاب حتى وإن ورطه ذلك بسلسلة طويلة من الأكاذيب المروعة . تصاعد قلقي ، وأنا أستعيد كلامه عن موسيقى البوب . قلب حنان أعلمها أن الأمريكان لن يخرجونا من رؤوسهم بسهولة ، وطلبت أن أنتظر لشهرين أو ثلاثة قبل أن أقدم على استرجاع أثاثنا ، وأطقم أدوات المطبخ من أصدقائنا ومعارفنا ، ولكنني أعدت كل شيء إلى مكانه ، لظني أن السيرجنت مايكل وجنوده تم سحبهم من الموصل ، ضمن خطة تخفيض القوات السرية التي جرت في تشرين الثاني من عام ٢٠٠٥ ، أو أنه أنهى فترة خدمته في العراق ، وعاد إلى بلاده .

سمعت حركة في الأعلى . رأيت مايكل يهبط السلم دون خوذة وسلاح . لم أتحرك من مكاني . بقيت أنظر إليه ، وأنا ملفوف بالبطانية . لم أكن على يقين من أن إشارات كهذه يمكن أن تعني شيئا لمايكل . ربما لأن الأمريكان ، إذا ما تعلق الأمر بالرجال من دون الأطفال والنساء ؛ فإنهم يطبقون قواعد

صارمة تتضمن إظهار عداء غريزي مع كميات كبيرة من الشكوك والظنون وعدم الوثوق بشيء . ولكن مايكل ، هذه المرة ، فهم أنني غاضب ، وأن الحزن يشنج عضلة ذقني . اقترب وضرب كتفي بقبضة متوددة . فاحت منه رائحة سمكية . قال إنه سيأخذ الفانوس . أومأت له بالقبول فرد بأنني رجل جيد ، ورأيته يتجه إلى التواليت .

كنت قد طلبت من الأمريكان ألا يستعملوا حمام الطابق الثاني لوجود خلل في نظام تصريف المياه . وحده مايكل من يأخذ تعليماتي على محمل الجد ، ويستمتع بالتزامه الأخلاقي نحوي . كان من الصعب توجيههم بالطريقة المباشرة ، فقمت ، بعد أن كرروا غزوهم ، بكتابة إرشاداتي باللغة الانكليزية على ورقة ، وعلقتها في الحمام . ولكنهم أغرقوا الأرضية بالبول ، وقاموا بملء البانيو بالماء ، ورسموني عاريا على الورقة ، وفوق رأسي عضوان ذكريان متقاطعان . كنت أعرف إن مايكل على علم بهذا ، ولكنني سلمت الورقة إليه ما أن جاء في المرة التالية ، وأفهمته أنني مستاء من هذا السلوك جدا ، وقدمت إليه ورقة أخرى صغيرة تحمل شعار كافيتريا الفنجان عليها أربعة أسطر احتجاجية باللغة الانكليزية بخط يد مناسك . قلت له فيها إن من المعيب جدا فعل هذا في بيت فيه أطفال يرون في أبيهم المثل الأعلى . وبخ مايكل جنوده أمامي واعتذر ، ولكنهم عادوا وفعلوا الأشنع حيث لطخوا الجدران بالبراز ، وحولوا الحمام إلى مستودع نفايات .

لمعت في رأسي فكرة أن أدعو مايكل إلى شرب الشاي ، وأفاتحه بشكل مباشر بطلب أن يتركني ويذهب بجنوده إلى مكان آخر . شدتني الفكرة وأخذت أحمصها في جمجمتي ، ولكنني لا أعرف كيف أقول له ذلك أو كيف أؤثر في عواطفه بلغة لا يفهمها . مايكل وإن بدا لي من النوع المنكسر بسبب لونه ، وأنا أساسا من المتعاطفين مع السود ، إلا أن هذا ليس بالضمان الذي يمكن الوثوق به . توجد شياطين بحجم أصابع البطاطا المقلية تلعب كرة السلة داخل جماجم الأمريكان لذلك من الصعب التكهن بردود أفعالهم . لقد سكتُ طوال الأشهر الماضية لأنني أخاف أن يدفعهم تمردي إلى اعتقالي .

راح عقلي إلى فكرة أن أستعين بمناسك وأجعلها تكتب لي رسالة طويلة مفعمة بتعابير التوسل والرجاء . أحكي لمايكل فيها عن حبي لبيتي وزوجتي وأطفالي ، ومدى حاجة الأسرة إلى أب أنيق الصورة وشجاع وغير ملطخ بالإهانات . هذه الأمور تعجب الأمريكان كثيرا ، ولها ثقلها العاطفي المؤثر . خطر لي أن أخبر مايكل بأنني صحفي . إذا غامرت واعترفت له بذلك فربما يشعر نحوي بشيء من المسؤولية ويقدر هذا الاعتراف الثمين . سأنتهز هذه الفرصة حتما وأحدثه عن معاناتي . لا يجوز أبدا أن يعمل الصحفي في أخطر بقعة في العالم ويتعرض لمضايقات من هذا النوع . سيدرك خسارة أن أفقد الحماسة بسبب نزوة عسكرية وفكرة حمقاء . ما قيمة مراقبة شارع مقارنة بمهمة إحصاء الصواريخ التي تسقط على المطار؟ ولكن

من يضمن أن السيرجنت مايكل سيقدر دوري الإعلامي ويتصرف بعقلانية . ربما سيهتم بأمري إذا أخبرته أنني أحب ارنست همنغواي .

وجدته يقف أمامي وأسنانه البيض تضيء وجهه . قلت له :

- Ernest Hemingway is good

وضع الفانوس بجواري وقال قبل أن يصعد إلى غرفة نومي :

- Good Toilet.

***

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة فجرا حين عادت مدرعة الـ striker لتزمجر بباب بيتي . هبط الجنود تباعا من غرفة نومي وهم يحملون أسلحتهم ومعداتهم بضجة قليلة ، ولكن بنشاط يفوق ما كانوا يتمتعون به ساعة وصولهم . بدا الأمر وكأنهم تلقوا أمرا يلزمهم السرعة . حاولت إظهار سخائي العاطفي إلا أن مايكل تجاهلني بصرامة وقام بفتح باب الحوش فيما بدا أنه تنظيم لعملية انسحاب .

لم أتوقع أن يغادروا البيت بهذه السهولة ؛ فهذه أقصر زيارة لهم في تاريخ احتلالهم بيتي . تمسكت بأخلاقيات الضيافة وكبحت تفاعلات الارتياح التي جعلتني أنا أيضا قويا ونشطا مثل بغل . رحت أنير لهم الطريق دون أن أعرف بالضبط أين علي أن أقف ، كما أنني شعرت بالخجل من الفانوس الذي

شح نوره فـأخـذتُ أتحرك دون أن تكون لي فـائدة حقـيقـيـة في عـمليـة الانسـحـاب ، وقـد ردوا بالرفض على مـحـاولتي عـرض المساعدة في حمل علب الذخيرة .

الظلام في الخـارج كـان يتـيم القـمـر . انتظرت أن يقـول مايكل شيئا حين وقفنا ، أنا وهو ، بباب البيت ، نشرف على دخـول آخـر جندي إلى بطن مـدرعـة الـ Striker . قـدرت أن الأمريكان غير شغوفين بالمجاملات التي تستخدم عند مغادرة الأماكن . السيرجنت مايكل لم يبد أي امتنان شخصي ؛ فقد قفز سريعا إلى المدرعة بينما أنا ألوح لهم بيدي . كما أنني أنا فقط من قال : Bye .

باربيكو في حديقة الشهداء

أخـرجت هوية مـزورة تشـيـر إلى أنني مـوظف في بلدية الموصـل ، ووقـــفـت بين عـــشـــرات المراجـــعين عند باب الاستعلامات الخلفي القريب من محطة وقود الجمهورية ، في انتظار أن يأتي دوري للدخول إلى مبنى المحافظة .

الخدمة الإعلامية التي أقدمها لمجلس الحكم المحلي ثمينة ، فغسل التصريحات وتنظيفها من الأخطاء السياسية التي توحي أن قـائلهـا ، بالكثـيـر ، سـائق حـاصـدة زراعـيـة ، جـعـل الغـد البـغـدادية تكسب أخـبـارا ملتـهـبـة ، ولأنني أجـعل كـبـيـرهم وصغيرهم لا يقل بشعرة عن كيسنجر ، فإن إعلام المحافظة يغفر لي عشرات التقارير التي أكتبها وأتطرق فيها إلى الفسـاد وسوء الإدارة والاستياء الشعبي العام .

استـقبلني عزيز مدير الإعـلام في جناح مكتب الارتبـاط في الطابق الثـاني ، وقـادني إلى غـرفـة الـذاتيـة عـبـر ممر مـأتمي ، هادئ ، تـتـوزع على جـانـبـيـه صـور لجنود أمـريكـان قـتلوا في عمليات هجومية ، أو ذهبوا ضحية انفجارات وكمائن ، وقد كتب تحت كل صورة ، بالعربية ، اسم الجندي ، وتاريخ ميلاده ،

ومقتله ، وبعض التعليقات التأبينية . لقائي بمدير الإعلام لا يتم إلا بعد اتصال مسبق أضمن فيه تفرغه ، وهو إجراء اعتمده الرجل بناء على طلبي ، حتى يحفظ لي أمني الشخصي ، ويبرهن على مدى التقدير الذي تكنه المحافظة للإعلاميين .

جلسنا إلى منضدة حديدية في زاوية غرفة الذاتية المستطيلة بعيدا عن الباب وعن موظفات محجبات بعمر اليأس ، لا يرفعن رؤوسهن عن السجلات خوفا من فضول الجنود الأمريكان الذين يتجولون بكثرة ، ويتطفلون على المكاتب . لمعت قطرات العرق على صلعة عزيز وهو يخلع نظارته السميكة . كان وجهه الخمسيني مدبوغا بالشحوب ما جعلني أغض النظر عن الشعر النابت بغزارة على فتحتي أذنيه .

بادرته بالسؤال :

ـ أنت منزعج من التحقيق الذي نشر مؤخرا عن علاقة مجلس المحافظة بالمواطنين . . صح؟

رد بانفعال :

ـ نعم . أنت يا أستاذ جلال لا تأخذ بنظر الاعتبار ما ألاقيه هنا ، فأنا بنظر الجميع المسؤول عما تنشره الصحف ، وأي شيء ينشر ويزعج المجلس أكون عرضة للمساءلة بشأنه . إنها مصيبة كبرى . ليس الكل على وعي بدوري ووظيفتي .

ـ على مهلك معي . أنت قدمت لي ردود سبعة من أعضاء المجلس على الأسئلة التي طرحتها وهذه الردود نشرت في التحقيق دون زيادة أو نقصان .

هز رأسه وأجاب :

ـ هنا المشكلة فأنت نقلتها كما هي . . يا أخي هناك أشياء جميلة تستحق أن تكتب عنها . . منارة الحدباء المائلة أكثر من برج بيزا ، وقلعة باشطابيا ، والكبة الموصلية . لماذا تعقّد الأمور وتضعنا في موقف صعب أمام المسؤولين .

تساءلت ساخرا :

ـ تريدني أن أكتب عن الكبة الموصلية والناس يذبحون في الشوارع؟ .

أخذ يشرح لي التفاوت الكبير بين أعضاء المجلس وكيف أنه يتعرض إلى مساءلات تصل إلى حد الإهانة . وقال إنهم يظنون أن بإمكانه إجبار الصحف على تغطية نشاطات المجلس واعتماد البيانات الصادرة عن مكتب الإعلام ، وأن المجلس يعد تجاهل الصحف لنشاطاته بمثابة عصيان مدني ، وأنه لا يعرف كيف يفهم الأعضاء أنه يعمل بأقصى طاقته ، وأن لا سلطة لهم على الصحافة . وقال إنهم متضايقون لأن الأمريكان يصرون على التواجد في المؤتمرات الصحفية ويديرونها على هواهم ، ويرسلون نشاطاتهم وبياناتهم إلى الصحف الكبرى في بغداد ، ويظهرون على تلفزيون نينوى أكثر من الموسيقى التصويرية ، والبث الإذاعي كله لهم بينما أعضاء المجلس لا شغل لهم سوى لعب الورق في مكاتبهم مع الجنود الأمريكان .

أمسك بيدي . التفت وتأكد من أن لا أحد يسمعنا وتابع :

ـ أنت شجاع يا أستاذ جلال . رفاقك في المهنة قتل

نصفهم ، ومن نجا اعتزل خوفا وجلس في بيته ، وصحفنا الأسبوعية في المحافظة أغلقت أبوابها لأن الأمريكان سحبوا دعمهم ما إن غادر الجنرال بتريوس المدينة . نحن نريد المحافظة على ما تبقى لنا . أنت تعرفني رجلا صادقا ولكنني أريدك أن تمنحني المزيد من الثقة وتأخذ كلامي على أنه بداية جديدة . نحن على استعداد لدعمك بأقصى طاقة لأنك نزيه وتعمل بإخلاص . أنا شخصيا أرى انه آن الأوان لتكون صاحب جريدة وتؤسس إمبراطوريتك الإعلامية . لا تتردد في طلب المساعدة مهما كان نوعها .

نظرت من فوق كتفه إلى الموظفات ، فانكمش مقربا أذنه من فمي :

ـ لدي معلومات عن تفجيرات وقعت في سنجار وتلعفر وهي تتحدث عن استهدافات متكررة لمعسكرات أمريكية ، وأيضا عن وقوع أعمال عنف طائفية . ما صحة هذا؟

ـ نعم هذا صحيح ولكن الموقف أعقد مما تقول ، إنه اقتتال حزبي . كان من المقرر أن يزور المحافظ تلعفر ويعقد اجتماعا مع رؤساء العشائر هناك إلا أن الأمريكان منعوه .

سألته :

ـ لو أردت أن أقابل مسؤولا كبيرا في الجيش الأمريكي ماذا علي أن أفعل؟

ـ أحقا يا أستاذ جلال لا تدري ماذا تفعل؟

تداركت الأمر قائلا :

ـ أنا أقصد الشخصيات السياسية أو العسكرية المهمة التي تزور المدينة مثل وزير الدفاع الأمريكي ووزيرة الخارجية . أنا على علم بالإجراءات ، ولكنني أسأل إن كان باستطاعتك أن توفر لي فرصة من هذا النوع .

رد باهتمام :

ـ الشخصيات التي تتكلم عنها لا تأتي إلى مبنى المحافظة على الإطلاق . إنهم يرسلون لنا أشخاصا لا نعرف على وجه الدقة مناصبهم وأغلبهم يعملون في لجان الإعمار ، وهؤلاء يأتون للمصادقة على قرارات اتخذت أو للإبلاغ عن مشاريع جديدة . إذا أردت مقابلة شخصية مهمة فهذا يستوجب أن تكون لك علاقة وثيقة بالمركز الإعلامي التابع للجيش الأمريكي . وبما أنك غير مسجل لدى الأمريكان وهم لا يعرفون عنك شيئا فالأمر بحكم المستحيل يا صديقي .

راقبني وأنا أفكر ثم تابع :

ـ غريب أن تسأل عن هذا وأنت ترفض حضور المؤتمرات الصحفية في المحافظة ، ولا تعلن عن نفسك كصحفي وتدخل وتخرج بأوراق مزورة .

ـ هو مجرد سؤال . أحيانا يكره المرء على فعل أشياء لا يحبها . هل لديك نسخ من محضري اجتماع المجلس و المؤتمر الصحفي الأخير؟

قال وهو ينهض مثل جمل :

ـ انتظرني سأجلبها لك .

استوقفته :

ـ لدي شكوى أريدها أن تصل إلى يد قائد القوات الأمريكية في المدينة .

التفت إلى الخلف قبل أن يسألني :

ـ هل لديك قريب معتقل لدى الأمريكان؟

ـ إنها بشأن طلب تعويضات عن أضرار مادية تسبب بها الجيش الأمريكي .

ـ مترجمه الفلسطيني يجلس الآن في مكتبي . أنت محظوظ .

سألته :

ـ هل يمكن لي أن أكتبها الآن وأسلمها إليه بنفسي . قل له إنني قريبك .

***

لقائي بالمترجم كان سهلا . تكلم معي بلهجة فلسطينية واضحة . لم يكن يحمل علامة تدل على رتبته العسكرية ولكنني أعرف أنه برتبة Lieutenant . لاحظت أن الجنود يكلمونه باحترام كبير ولا يقتربون منه . نال شهرة عريضة بين المترجمين العراقيين حتى وصل صيته إلى كلية الآداب في جامعة الموصل ؛ فقد كان شديد البراعة في الترجمة الفورية وكثير الظهور على التلفزيون المحلي برفقة الجنرال بتريوس ، وطريقته في الكلام تقترب من إلقاء الشعر . قرأ ورقتي باهتمام وتعمد أن يلتزم بحقيقة أنه أمريكي ، وطلب أن أشرح له بدقة

سبب اعتراضي على أن يقوم جنود قوات التحالف بتنفيذ مهمات الهدف منها تخليص بلدي من الإرهابيين . وعندما أخبرته أنني لا أعيش حياتي كما يجب ، وأن وجود الجنود في بيتي يعرضني إلى مخاطر كبيرة ويرعب أسرتي ، سألني إن كنت أفضل أن يبقى العنف في الشارع . أوضحت له أنني لا أرغب بهذا ولكن أطفالي وزوجتي يصيبهم الخوف من وجود الجنود ثم إن الأمر قد طال كثيرا وهذا يتسبب لعائلتي بضرر نفسي ، وقد يعرضنا إلى تهديدات من جهات مجهولة ، كما أن وجود الجنود في بيتي يعرضني إلى شبهات ، الأمر الذي يهدد حياتي . قال إن جنود التحالف يتعرضون إلى مخاطر وهم يدافعون عن بلدي فلماذا لا أقبل أنا العراقي المشاركة في هذا؟ قلت له إنني شاركت في هذا فعلا وتعاونت مع جنود قوات التحالف وإن بإمكانه أن يسأل السيرجنت مايكل ، ولكن الأمر يتعلق بأمن أسرتي ، فقال بأن كل أسرة في أمريكا تقدر بعمق ان أبناء الولايات المتحدة هم في واجب من أجل الديمقراطية ، فلماذا لا تتعلم الأسرة العراقية من الأسرة الأمريكية ، فقلت له والله العظيم نحن نتعلم وأنا معجب بالحلم الأمريكي ، ونحن نشاهد دائما برنامج أوبرا ، ولكن مظهر الجنود والأسلحة يرعب أطفالي . سألني إن كان الجنود قد ارتكبوا مخالفات فأخبرته بما فعلوه في الحمام وبملابسي وكتاب موبي ديك .

***

انضممت إلى خمسة أشخاص كانوا يطالعون عناوين الصحف التي فرشها طارق بالقرب من شربت زبيب الإخلاص في منتصف شارع الدواسة . اشتريت صحيفتين إحداهما الغد ، وأعارني خمسة صحف اخترتها من بين أهم ما يصدر في العاصمة . أفعل هذا يوميا مقابل ألف دينار أدفعها نهاية كل أسبوع . أخذت الصحف وجلست في مقهى قريب ضيق فيه مصطبة من الاسمنت عليها بساط من مشاغل سنجار ، ورحت أقلب الصحف وأنا أشرب الشاي .

اكتشفت أن أحدهم سرق مقاطعا من تقرير لي عن تلعفر سبق للغد أن نشرته قبل ثلاثة أيام . لم أتمكن من قراءة الأعمدة فقد أدركني الوقت ، وكان علي أن أقابل فارس جمعة وهو خياط وتاجر أقمشة رجالية عرفته عن طريق حسن ؛ وهو حلقة الوصل التي تربطني بقائد الشرطة .

أعدت الصحف إلى طارق فاستوقفني طالبا أن أساعده على نشر رسالة استغاثة مفتوحة يطلب فيها مساعدته في معالجة ابنته التي تبلغ السادسة من العمر ، وتشكو وجود ورم في الوجه . وعدته أن أنشرها له في صفحة شؤون الناس ، وعبرت التقاطع الذي يتوسط الدواسة وسرت باتجاه كنيسة أم المعونة حيث محل الخياطة وبيع الأقمشة الذي يملكه فارس . انتظرت خمس دقائق متنعما بطعم فنجان قهوة مهيلة أعده لي ابن أخت فارس وبدفء المكان ، متنفسا رائحة الأقمشة المرتبة في أطوال على رفوف تصل السقف وتشغل ثلاثة من أضلاع

المحل . لمحت فارس من خلف زجاج الواجهة يركن سيارته الأوبل الرمادية ، ورأيته ينظر إلى حذائه قبل أن يدخل . صافحني ثم ألقى سلسلة مفاتيحه على نضد التفصيل الخشبي . يكبرني بست سنوات وببنية متينة تنأى عن التدهور الذي يعلّم هيئتي ، رغم أنني وقفت الأسبوع الماضي عند حافة الأربعين . سألني عن حسن وعمله مظهرا لي أنه على علم ببعض الأمور التي حصلت مؤخرا لعائلة حنان .

وجدته يقول لي دون تمهيد :

ـ قائد الشرطة منزعج من بعض الأخبار المنشورة . الرجل متعاون معك ويخصك بتصريحات مهمة .

ـ وأنا أيضا أنشر صورته بحجم كبير ، وأنقل عنه أن الوضع تحت السيطرة .

قال دون أن ينظر في عيني :

ـ كل القصة أنني أحرص على علاقة طيبة مع حسن ونحن نريد مساعدتك . أنت لا تعلم مدى الفائدة التي يمكن أن تحصل عليها إذا تمكنت من عقد علاقات جيدة مع الحيتان . عملي مزدهر لأن هناك من يقدر على ارتداء الملابس الغالية . أنا الآن أعيش من خياطة الملابس للمسؤولين وحراسهم وأقربائهم . خياطو الموصل صاروا يتاجرون بالموبايلات . عملي مزدهر لأنني على علاقة طيبة بهم . خزائن الدولة يا صديقي مثل قبعات السحرة تضع فيها أرنبا ثم تقلبها فلا تجد شيئا ، وأنت صحفي يا جلال وأكيد تعرف أين تذهب ملايين الدولارات .

نفخت صدري وقلت له وعلى وجهي ابتسامة ساخرة :
ـ ما أعرفه هو أنك ساحر ماهر .

أخذ فارس يداري شعوره بالإهانة ، مدافعا عن قائد الشرطة ، قائلا إن البلد يحتاج إلى وقت وعلينا ألا نبالغ في المثالية .

حاولت تخفيف الحرج فقلت له وأنا أنهض قاطعا خطوة باتجاه الباب :

ـ أريد أن أحصل على إحصائية بشأن جرائم الخطف التي وقعت في الشهرين الماضيين . يوجد تعتيم حول هذا الأمر ، كما أن محاولاتي للحصول على معلومات دقيقة من جهة رسمية باءت بالفشل .

ـ هذا اعتراف منك بأن خدماتي مفيدة لك . أغلب الناس لا يبلغون الشرطة بعمليات الخطف ويعملون على تسوية الأمر بدفع الفدية . انتظر مني تلفون .

لا أدري إن كان حسن قد أخبر الخياط بقصتي مع الأمريكان . تفكيري في احتمال أن تعرف الشرطة بأمر الوجود الأمريكي في بيتي أرعبني ، وجعلني أمضي باستنتاجاتي إلى تخيل مشاهد مأساوية لكوارث أيامي القادمة مع هذا الحظ الأعوج .

لمحت عنبر عربانة يأكل وهو واقف قبالة واجهة مطعم المشوار . ميزته من لوح ظهره وبنطلونه البرتقالي . في منتصف النهار تزدحم مطاعم الدواسة الضيقة بالكسبة الذين يلتهمون

السندويتشات ، وقوفا في عشرات من تلك الأماكن التي تعرض واجهاتها صنوفا محددة من لحمي البقر والدجاج ، فضلا عن المخ واللسان والفلافل . يصعب في هكذا مقابلات الإفلات من عروض تلقى مرارا من أصدقاء ومعارف للمشاركة بأكل السندويتشات . البعض يبالغ في ذلك إلى حد الإكراه . أكلت قطعة طرشي بعد أن حلّفني عنبر بتراب أبي أن أمد يدي إلى صحنه ، وطفق يحدثني ولحمه يرتج بين المضغ والكلام عن أزمته مع أصحاب إدارة سينما الأندلس ، وأنه يبيع السجائر على الرصيف لأن لا أحد أعطاه فلسا منذ عام نظير حراسته المبنى . عنبر غير متناسق الأعضاء مثل سينما تعرض ستة أفلام في آن واحد . ملامحه يافعة ولكن جمجمته كبيرة ، وهو لا يعرف الإصغاء ولا يستقبل شيئا ولا يبدل ما برأسه ولا يطوره حتى يستجد غيره ؛ لذلك يعيد الكلام نفسه في كل مرة متطلعا إلى أن يسمع من الذين يستوقفهم أية توقعات أو إشارات أو أمنيات تعزز أمله في أن تعود سينما الأندلس إلى العمل من جديد ، متحسسا وهو يتكلم عدة عمله السابق التي تتدلى من حزامه : الشاكوش والكماشة وحقيبة المسامير الجلدية ، والتي كان يستعملها في أيام سعادته الغابرة في تعليق شيتات الأفلام وتثبيت صور الممثلين على ألواح العرض .

قال وخط من الزيت يلمع من طرف فمه :

ـ وعدوني بعدم الاستغناء عني ، وأن يوظفوني بصفة

حارس إن تم الاتفاق . . سيحولون سينما الأندلس إلى مخازن للأحذية والملابس الصينية يا أستاذ جلال .

ـ لا تنقطع عن زيارة إبراهيم توسان . . ربما أترك لك خبرا عنده .

ـ لقد ساعدتماني كثيرا وأنا أبيع السجائر الآن والأمور ماشية .

ـ لا أقصد هذا . . هناك محاولة سأقوم بها .

رافقني عنبر إلى مقهى الانترنت التابع لمدرسة إسلامية في شارع مكتبة الأوقاف وهو يكلمني عن أوسكار هذا العام . افترقنا عند الباب بعد أن طلبت منه أن يجلب لنا البيرة والويسكي من القرى المسيحية ، وأعطيته نقودا من أجل ذلك . وجدت الكومبيوتر الذي في الزاوية شاغرا .

مناسك : !!! BUZZ

مناسك : هاي

جلال : أين أنت يا سحليتي الجميلة؟

مناسك : في الجهة المقابلة لك في الركن النسائي .

جلال : ماذا عندك؟ .

مناسك : أنجزت ما كلفتني به بشأن جرائم الاختطاف وأكملت تقرير مرضى الثلاسيميا ، سأحوله إليك ولكن إياك أن تغير الجمل الشاعرية المؤثرة التي كتبتها .

جلال : سأعضك من مؤخرتك إذا وجدت التقرير غير جيد .

مناسك : هكذا لن أتعلم أبدا . أريد عقوبات أشد .

مناسك : BUZZ !!!

جلال : مثل ماذا؟

مناسك : أن تربطني عارية وتجلدني . . لدي أفكار أخرى مجنونة . . أريد أن أشرب العرق وأتقيأ على صدرك .

مناسك : BUZZ !!!

مناسك : هل يعجبك عهري الافتراضي؟

مناسك : BUZZ !!!

جلال : هل أرسلت البريد الذي حولته إليك؟

مناسك : نعم . . لم تخبرني ماذا كتب توفيق الحداد في الرسالة؟

جلال : قال لي انه سيأتي إلى الموصل قريبا ، وإن أخي أرسل لي معه عشرة آلاف دولار ، وإن كمال حقق إنجازا وطنيا مهما بالاتفاق على وضع الآثار العراقية المهربة تحت وصاية دولية إلى حين إعادتها إلى البلاد .

مناسك : وماذا عن القلادة؟

جلال : لقد ذكرها في الرسالة وقال إنه يريد أن يلتقي بي مجددا ، وإنه يحتفظ بانطباع جميل عن لقائه القصير بي في بيتنا وانه يحن إلى فوضى غرفتي ومنظر الكتب وإلى تبجيلي قلادة الملكة شمشو .

مناسك : وماذا ستفعل؟

مناسك : BUZZ !!!

دوت ثلاثة انفجارات متعاقبة وقريبة ثم عم الصمت دقيقة قبل أن تتعالى اطلاقات نار خلتها تستهدف الجدار خلفي . قمت بإغلاق الكومبيوتر ومغادرة المكان . بدا المقطع المرئي من شارع الدواسة خاليا من الحركة . لحقت بي مناسك فأمسكت بيدها وأسرعنا بدخول الزقاق الأول من جهة جامع النبي شيت . لم تكن اتصالاتنا لتحديد مكان الانفجارات موفقة ، ما اضطرني أن أكلم عنبر عربانة الذي قال ، وكأنه يهتف في تظاهرة ، إن قذائف هاون استهدفت سينما غرناطة ، ولكن الله لطف ولم تصب بأذى ، فشتمت أمه وأغلقت الهاتف . كان علينا ، وفق كلام عنبر ، أن نعود لنعبر شارع الدواسة لأن الهدف كما يبدو هو مديرية الشرطة ، وهذا يعني أن نسير باتجاه حديقة الشهداء والاستعانة مجددا بفارس صاحب قبعة الساحر . طلبت من مناسك أن تعود إلى مقهى الانترنت وتنتظرني ، ولكنها أصرت على مرافقتي فسحبتها من يدها ورحنا نهرول بتعرج تفاديا لبرك المطر . ابتلع شارع الدواسة الحركة وقد لاحت من المحال التجارية عيون لرؤوس مستترة . التقطنا أنفاسنا عند ضلع جدار أتاح لنا رؤية الجانب الأيمن من الشارع ، ومتابعة مسار سيارات الشرطة وهي تمرق بسرعة . نبهت مناسك التي رفعت جلبابها الكموني تهيئا لركضة سريعة إلى عدم معارضتي في أي قرار قد أتخذه ، وقبل أن نصل إلى الرصيف المقابل بخطوتين دوى انفجار هز الأرض بدا من شعلته المدخنة التي لاحت لنا في عمق الشارع من جهة

مبنى المحافظة أنها سيارة مفخخة . جرتني مناسك إلى الخلف ولكنني استطعت انتشالها وسحبها إلى متجر أجهزة كهربائية . كنت ألف ذراعي على خصرها حين انتبهتُ لهمهمات وأنفاس متسارعة كامنة في العتمة التي خلفنا . شبكتُ أصابعها وغادرنا المتجر مسرعين باتجاه مكتبة بانيبال . ثمة إطلاقات نار متفرقة من الجنوب والشمال وفي السماء أصوات مروحيات .

طلبت من الحاج جبار أن يهتم بمناسك التي كلفتها بمتابعة الموقف مع المستشفى ومع عزيز إلى حين عودتي .

قالت وهي تلتصق بي :

ـ لن أتركك تذهب وحدك .

ـ لا أريد لفارس أن يراك معي .

اتسع مركز السواد في عينيها وهي تمضغ الكلمات :

ـ تخشى أن يبلغ حسن وحنان؟ سأكون محترمة وسأنتبه لسلوكي .

ـ حسن وحنان يعرفان أنني معك طوال الوقت . أنا أخاف عليك .

حدد لي فارس أماكن وقوع الانفجارات ووعدني أن يحقق لي الاتصال بقائد الشرطة خلال وقت وجيز . كانت القذائف قد سقطت على زقاق يقع خلف مبنى السينما ، فقتلت صبيا ، وجرحت خمسة أشخاص ، وأشعلت حريقا في بيت غير مأهول . تمكنت من الحديث مع ضابط شرطة صغير السن أشعره تقربي بالأمان وسط انفعالات أهالي الضحايا ، وسمح

لي بأن التـقط صـورا بالموبايل . انسـحـبت عـائدا إلى مكتـبـة بانيبال . وجدت مناسك تسجل ملاحظات وهي تحادث عزيز بتشنج أثّر في الحاج جبار الذي أخذ يتحرك بقلق متطلعا إلى رفوف الكتب المغبرة . أبلغتني مناسك أن ثلاثة هجمات أخرى بسيارات مفخخة تعرضت إليها مراكز شرطة في أحياء الجامعة والسكّر والرفاعي ، وأن الجسور قطعت والقوات الأمريكية تطوق مبنى المحافظة .

غادرنا المكتبة ما إن وصل طلال حفيد الحاج جبار . وجدنا مقهى الانترنت مغلقا فعدنا قاصدين حديقة الشهداء كي نعد تقريرا صوتيا للغد البغدادية في محيط مؤمن يسمح بالصراخ . تلقيت ، ونحن في الطريق ، رسالة من فارس عبر الموبايل فيها رقم هاتف جديد لقائد الشرطة . سجلت حواري القصير معه بعـد أن اسـتـقـر رأينا على المسطبـة الملائمـة للعـمل . راجـعت المعلومات المتوفرة وكتبت ثلاثة أسطر كمفتتح للتقرير ، ورحت أتعـذب مدة نصف سـاعـة في مكالمة غير واضحة الصوت مع الغد البغدادية .

ـ الجسور مقطوعة والمنطقة مطوقة .

لم أعلق ، فعادت مناسك لتقول :

ـ أريد قضاء الليل هنا .

تركتها تتعمق أكثر في استلهامها الروحي ، فتابعت :

ـ خـمـسـون ألف دينار رشـوة لحـارس الحـديقـة ، وخـمـسـة وعشـرون ألف دينار عـشاء كـامل المسـتلزمات . . معنا مسـدس

وبحوزتنا رقم هاتف قائد الشرطة . . كم أود أن أتبول في العراء .
لم أفعل هذا منذ ربع قرن .

ـ هل ستتحملين البرد وإزعاجات الأشباح؟

ـ يوجد هنا الكثير من الأخشاب يا روبن هود .

سألتها :

ـ ماذا تحبين أن يكون العشاء .

ردت بفرح :

ـ باربيكو .

بيت المكاوي

سرتُ خلف خادم طويل القامة يرتدي قميصا مقفولا يغطي الخصر وتفوح منه رائحة دهن العود . عبرنا حوشا مكشوفا لا تبدو عليه الحياة مغلفا برخام موصلي أزرق بعروق بيض ، وعلى اليمين ثمة إيوان عميق البطن بارتفاع ستة أمتار . وفي الطبقة الثانية من البناء رأيت أربع غرف بأبواب خشبية مطعمة بنقوش معدنية . اجتاز الخادم بوابة على الطراز العثماني إلى حوش آخر أقل هيبة ، تتخلله مربعات مزروعة بالجوري ، وعلى جانبيه أجنحة غامضة ، وبدا البناء أعتق من السابق ، ومن الواضح أن البيت بجزءيه لم تدخله امرأة ، ولم يلعب فيه طفل .

فتح الخادم بابا وطلب مني الانتظار . وجدتني أقف وسط جدران من كتب تبدأ من الأرضية المغطاة بسجادة تركية حمراء لتلامس خط انحناء القبة . وعلى جانبي نافذة عمودية كرسيان ثقيلان من طراز لويس الرابع عشر بعقدة خشبية عند الأرجل منجدان بحرير زهري . كانت معظم الكتب باللغة الفرنسية ماعدا رف يحتوي على مجاميع كاملة لروائيين عرب

ليس فيهم عراقي واحد .

هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها هذا البيت . أوصلني إليه يوسف بعد جولة منهكة في أزقة المكاوي . جبهته الجصية المتآكلة تخلو من النوافذ ، وثمة كسر زجاجية مغروسة في الأعلى تبدو كتحذير غير جاد ، مقارنة بعلو الجدار الذي يبلغ ثمانية أمتار . أما الباب الحديدي الذي التهم الصدأ ماضيه فهو يقطع بأنه مدخل مقبرة .

السيد صافي شخص غير تام التعريف . أجهل اسمه التسلسلي الحقيقي ، ولا أعلم إلى أي أسرة ينتمي . لا أعرف عنه سوى أنه رجل واسع الثراء ويحمل شهادة الدكتوراه من السوربون . المقربون منه يروون حكايات غير متفق عليها ، لكن الأمر لا يبدو تمويها مصطنعا ؛ فالرجل له مكانة لا يبلغها الشك ، برغم أنه لا يشيع الوضوح ، وثقافته وأناقته تجعلانه في منطقة بعيدة عن اجتماعياتنا المتداولة . يجمع متناقضات ليس أقلها غرفة القراءة ، والبيوت التي يقابلنا فيها تبدو كديكورات ، ولغته الصوفية وأفكاره التي يصوغها بصور باذخة المعنى تدل على أنه ليس من هنا . أكثر من مرة صارحته أنني أراه كرجل مظلي أسقطته طائرة ، وكانت تلك صفاقة مبررة مني ، فأنا لا أجد ضرورة للتكتم والسرية ، بل تجرأت يوما وطالبت بأن نتحول إلى تجمع سياسي واضح المعالم ، وكانت هذه الفكرة تصيب الجميع بالرعب ، والسيد صافي يراها ضد التاريخ ، وكثيرا ما أجده يجرنا بحديثه إلى أدلة يرميها في سياق

موضوعنا لأعرف أنها إجابة يخصني بها ، وأنني لست أكثر من أحمق .

لقائي الأول بالسيد صافي جاء بعد مرور شهر على انتمائي إلى الدومنيكوس ، وكان ذلك في شباط من عام ٢٠٠٥ . عانى إبراهيم توسان طويلا وهو يمهد لجري إلى هذا العالم السري ، حيث الأغنياء فيه يحاربون التصحر والهمجية مع المثقفين الذين يعملون كما الملائكة . كان عضوا برتبة أمين ووريثا لجده الذي خدم في الدومنيكوس قبل نصف قرن . تعب إبراهيم في أن يجعلني أصدق قصصه التي رواها لي ، كما أنه اشتبك في نقاشات استغرقت سنة كاملة قبل أن يتمكن من كسر التقاليد ودفع السيد صافي إلى التدخل . كان النظام الداخلي يحصر الانتماء إلى الدومنيكوس بثلاث عوائل ، على أن يقوم كل عضو بتسمية وريثه شرط أن يكون من عائلته ، حيث يتلقى الوريث تعليما خاصا بدءا من سن الثامنة عشرة لينال المرتبة الأولى وهو في سن الخامسة والعشرين . وبما أن عائلتي ليست من ضمن العوائل الثلاث ، فقد استخدم السيد صافي صلاحياته في اعتمادي عضوا شرفيا على أن تنتهي هذه العضوية بموتي ، وألا أتدرج في الرتب ، ولا يحق لي معرفة أسماء الأسر ، ويكون انتمائي مقيدا ، وأن أخضع لسلطة محكمة المنظمة التي تنفذ بحقي جزاء الموت في حال ثبوت خيانتي للعهد .

في القرن الثامن حدث انقلاب على نظام التيمار

الإقطاعي العسكري العثماني ؛ فنمت طبقة من الإقطاعيين المحليين سرعان ما تقاربت للدفاع عن مصالحها ، ودخلت في صراع مع فرسان السباهية من أجل السلطة ، الأمر الذي أدى إلى وصول الأسر الارستقراطية الموصلية إلى الحكم ، فتمتعت المدينة في ذلك العهد بولاية مستقلة . وحدث في منتصف القرن الثامن عشر أن تعرضت الموصل وحلب وماردين وديار بكر إلى موجة برد مهلكة جمّدت نهر دجلة بشكل كامل ، حتى إن القوافل بقيت تعبر فوقه مدة شهر ، وتفشى الغلاء ، وحدثت هجرة من القرى إلى المدينة بحثا عن القوت ، فتدهورت الحالة المعاشية بتسارع ، واضطر الفقراء إلى بيع أولادهم من فتك الجوع . ولجأ الوالي إلى طرد الدخلاء والأجانب من المدينة لتخفيف النكبة عن أهلها ، واتخذ الكثير من الإجراءات التعسفية القاسية إثر وقوع السرقات وجرائم القتل ، فاجتمعت ثلاث أسر ارستقراطية بينها أسرة السيد صافي ، واتفقت على تكوين منظمة خيرية سرية هدفها دعم أركان المجتمع ، والحيلولة دون التفكك الأسري ، والوقوف بوجه الفساد بأنواعه . كانت المنظمة تعمل بالضد من بعض التجار والموظفين الكبار الذين استغلوا الغلاء والأزمة استغلالا بشعا ، وكانت هناك خشية من أن حكومة الولاية قد تقف موقفا سلبيا من المنظمة وتعدها تهديدا لها إذا ما تم الإعلان عنها ، فقد نجح أشباحها في وقت وجيز بكسب الأهالي الذين صاروا يؤلفون القصص العجيبة عن أشخاص ينزلون من السماء بالعطايا

والإحسان ، وقد لجأ الوالي إلى رجال الدين لكبح الجنون الذي عم في الموصل جراء استفحال الخيال ما دفع المنظمة إلى المزيد من التكتم . الاجتماع التأسيسي حضره الايطالي الأب فرنسيس تورياني وهو أبرز شخصية ضمن بعثة الآباء الدومنيكان التي أرسلها البابا بندكت الرابع عشر عام ١٧٥٠ لنشر الكثلكة بين نصارى الموصل . كانت الأسر الثلاث مسلمة وتملك حضورا تجاريا كبيرا ونفوذا واسعا ، وإن أسرة السيد صافي كانت الأكبر وهي صاحبة الدعوة الأولى ، واحتكرت كرسي الرئاسة وتوارثته ، وهي التي طلبت من الإيطالي الأب الدومنيكي كودليونشيني أن يشترك في أعمالها الخيرية ، وخصصت له الأموال ليقوم بجولة في القرى الشمالية المسيحية لمساعدة الفقراء ، وقد مات الأب كودليونشيني مسموما في بلدة ألقوش عام ١٧٥٣ ودفن في دير ماركوركيس ، وتكريما له تم إطلاق اسم الدومنيكوس على المنظمة نسبة إلى مؤسس الرهبنة في القرن الثالث عشر القديس عبد الأحد دومنيكوس . وقد أشارت الوثيقة الموقعة إلى تعهد الأب توورياني بأن يحظى رئيس المنظمة بتعليم وتثقيف أوربي ، وصار من باب التقليد أن يدرس حافظ العهد في فرنسا ، وأن يتلقى تعليما منهجيا .

- إنها نسخة بتوقيع سارتر .

استدرت فوجدت السيد صافي بضخامته المهيبة في بدلة كحلية ينظر إلي مبتسما ، وقد أعطاه الضوء القادم من الباب هالة

إجلال . جسده يشي بتدريبات رياضية قديمة . هو في السبعين لكنه مشدود الوجه باستطالة مع أنف دقيق وفم عريض . حليق الذقن والشارب وشعره الأبيض كامل الانتشار . انتظر حتى أعدت الكتاب إلى مكانه وأشار لي أن أجلس وتابع :

ـ الفرنسيون قدموا تضحيات جليلة من أجل الجمال .

حركت يدي على ذراع الكرسي وقلت :

ـ لويس الرابع عشر كان قويا حين بنى فرساي .

ـ أنت تحب الوصول إلى النهاية بسرعة .

خشيت أن يحسب اختصاراتي تطاولا فقلت :

ـ هذا لاعتقادي أننا لا نملك الوقت .

نظر إلى حذائي وقال :

ـ الإيمان بالحياة عنصر فطري ، لكن يبدو أن علينا أن نصنعه بأنفسنا . الكثيرون يطبقون مبدأ العادة . أو لنقل التربية الإجبارية . كنت دائما أتساءل كيف يمكن خلق مدرسة نزيهة وحرة؟ كيف يمكن الاستدلال بالعقل دون الحاجة إلى محاربة الأفكار؟

ـ أنا لا أراها تربية إجبارية وإنما قيادة استبدادية ؛ ولهذا نحن الآن أعداء أنفسنا .

ـ بالضبط .

فتح ذراعيه وساقيه وتابع :

ـ تعجبني أفكارك .

ـ الكثيرون يجدونها تهورا .

ـ أنا أراها شجاعة منك ولقد استدعيتك لأبلغك أنه يمكنك تنفيذ فكرتك بشأن سينما الأندلس .

سألته وأنا ساخن الدم :

ـ ما هي شروطك سيد صافي؟

رفع حاجبيه باستغراب وقال :

ـ لا شيء ماعدا أنك ستستخدم مالي في تحقيق فكرتك .

سألته بعد تردد :

ـ أنت مقتنع أن سينما الأندلس يجب ألا تتحول إلى مخازن؟

ـ بالتأكيد .

لم تكن النافذة تطل على شيء يجذب البصر .

ـ قل ما في قلبك ولا تتردد .

سألته مجددا :

ـ لماذا لم تدافع عن فكرتي أمام مجلس الأمناء؟

ـ إذا أردنا أن تكون لدينا سينما فهذا يحتاج إلى استثمار أموال كبيرة ، وإذا ما فكرنا بهذا الاتجاه فنحن بحاجة إلى أكثر من دار عرض وهذا صعب . نحن لا نملك القدرة على هذا الترف الثقافي ، ولكنني شخصيا أحب أن أكون متهورا .

ابتسم وهو ينظر إلى فراغ بعيد وتابع :

ـ أنت تريد لمبنى سينما الأندلس أن يبقى . تريد يا صديقي أن يكون هناك أثر ما لرائحة كاثرين هيبورن . أنا أيضا أريد هذا .

ـ سينما الأندلس ليست الفكرة الوحيدة التي عرضتها عليكم ، سبق أن طلبتُ دعما لمشاريع ثقافية بسيطة ولكن مجلس الأمناء رفض ، وأنت يا سيد صافي لم تتدخل رغم علمي أنك تؤيد توجهاتي . هل الأمر له علاقة بذوقك وحبك لفن النخبة؟

وقف السيد صافي ومنعني بيده من الإتيان بحركة احترام . استعمل إصبعه في تتبع كعوب الكتب . قليلة جدا هي الالتفافات التي تظهر تقدمه في السن ، لكن العلامة الأكيدة على متانة أجهزته عدم استخدامه النظارة الطبية . سحب أربعة كتب وأخذ يتطلع إلى الأعلى . قال دون أن يلتفت إلي :

ـ في القرنين الماضيين كنا نحارب الجوع . في الحرب العالمية الأولى حدث انحراف في التوجه العام . ليس لأن الجوع انتهى وإنما كنا نريد أن نبدأ بداية جديدة مع الانكليز .

عاد ليجلس واضعا الكتب على فخذه الأيمن . حدقنا معا إلى فراغين متعاكسين وأضاف :

ـ أنا لا أفعل هذا دعما لوجودك في الدومنيكوس أو لدفعك إلى أن تكون فاعلا أكثر مما أنت عليه الآن . إنه أمر يتعلق بي شخصيا . لقد كانت تجارتنا رائجة في الزمنين العثماني والانكليزي ، وكنا ندفع ضرائب المرور لقاطعي الطرق من العشائر التي تسيطر على الأرض . وفي القرن التاسع عشر تولى أحد الأجداد مهمة رئاسة الدومنيكوس ، وكان قد استغل

وجوده في أوربا للاطلاع والدرس والتجوال ، وعمل حين عاد إلى الموصل على الاهتمام بالمدارس وتحديث مناهج التعليم ، وأرسل الكثير من الطلاب للدراسة في أوربا ، على غرار ما قام به القس خضر الكلداني ومن قبله القس الياس الموصلي الذي وفرت له أسرتي في القرن السابع عشر المال ليستطلع العالم ، وكان أول رحالة شرقي يزور القارة الأمريكية في العصر الحديث . وجاء بعده محمد أحمد العمري ومحمد الجوادي . لقد اهتم هذا الجد بالثقافة ، وبإحياء التراث وشجّع الترجمة . أحدث ثورة في توجهات الدومنيكوس ، ولكن الأمور تدهورت مع الحرب العالمية الأولى ، ودخول الانكليز إلى الموصل . هذا الرجل الفذ وجد مقتولا في هذه الغرفة التي نحن فيها الآن .

سألته :

ـ هل للانكليز يد في هذا؟

انعقدت نظراتنا لبرهة :

ـ هناك خطر ما .

نهض ، وتقدم واضعا يده على كتفي :

ـ سيد جلال . لقد أبدى القنصل الفرنسي في منتصف القرن التاسع دهشته حين اكتشف أن الأهالي هنا يعرفون عن نابليون أكثر مما توقعه بكثير . عليك أن تعرف أن إحياء قصر بني هو من مالي الخاص ، وأنني أدرك تماما ما ينبغي علي فعله في أيامي الأخيرة .

قلت له :

ـ سيد صافي هناك من قد يحكم على كل هذا بالموت .

طلب مني الوقوف . قادني من يدي إلى منتصف الغرفة ثم قال :

ـ أنت تقف الآن على بركة دم .

نظرت في عينيه منتظرا أن يكمل . أحسست بقوة أصابعه وهو يقول :

ـ أريدك أن تسرع . ساعدني أرجوك .

اضطررت إلى أن أسأله بنبرة توحي بالطاعة :

ـ ماذا تريد أن أفعل بالتحديد؟ .

ـ عليك أن تسرع في جعل الموسيقى تنبعث مجددا من قصر بني .

ـ سأفعل .

ـ يجب أن نسترجع خالد محمد علي وفرانسيس كوبولا .

ـ أنت تتكلم عن شخصين أنا وأنت نعرفهما لكن ماذا عن الذين لا يعرفون سوى بطونهم؟

ـ هم ينتظرون . . هذا هو المهم .

سألني قبل أن يفتح لي الباب :

ـ هل عرفت الآن لماذا كلفتك بمهمة ترميم قصر بني .

ـ أنا أعرف أنك خائف .

ـ وأنا أعرف أنك تقدر على فعل الكثير .

مدفن البحيرة

تأسفت سندس تلفونيا لأنها سافرت إلى أربيل قبل أن تتعرف إلى حنان . وتكلمت قرابة ربع ساعة عن صدمة العودة إلى البيت الأول ، وقالت إنها استنتجت أن المكان هو الذي يغترب وليس الإنسان . وأعلمتني أنها صديقة مقربة لزوجة كمال ، وأنها تقوم الآن بترجمة كتاب يتحدث عن التنقيبات البريطانية في مدينة كلخو عام ١٩٤٩ ، وأن أخي عرض عليها المساعدة ؛ لأنه عمل مدة خمس سنوات في قصر آشور ناصر بال الثاني ، وسألتني إن كان بمقدورها الاطلاع على مكتبته ، فأخبرتها أن الكتب محفوظة في بيت أختي ماجدة التي هاجرت إلى السويد قبل ثلاث سنوات ، وتركت بيتها بوصاية أهل زوجها . أبدت تفهما ووعدت أن تأتي لزيارتنا ما إن تعود من أربيل .

رسالة توفيق كانت حافلة بالذكريات ، وفيها عشرات الأسئلة عن أسماء لا أتذكر وجوهها . وخصص جزء للحديث عن كمال وأخباره ، ولمح إلى وجود اتصالات مع الحكومة العراقية بشأن نشاطات كمال في الخارج ، وكيف أنه يعمل

ضمن فريق أمني لإعادة الآثار العراقية المنهوبة من المتاحف ، والمهربة عن طريق الأمريكان .

طلبت من ماجدة أن تتصل بكمال ؛ لأن أرقام هواتفه التي أعرفها لا تجيب . لم أخبرها بشأن مبلغ المال ، ولم أسألها إن كانت تعرف سيدة تدعى سندس ، أو سمعت نسرين تتحدث عنها ، وقلت لها إن هناك مؤتمرا دوليا كبيرا سيعقد في السليمانية ، وإن الجهة المشرفة عن المؤتمر تريد دعوة كمال للمشاركة فقالت بأنها هي أيضا تملك أرقام الهواتف نفسها وهي لا تجيب ، وإن كمال لم يتصل بها منذ زمن ولا حتى زوجته نسرين فسألتها إن كان بإمكانها السفر إلى ألمانيا ، فقالت إن ابنتها هبة ستسافر إلى برلين مطلع الشهر القادم ، فأوصيتها أن تهتم بالأمر .

حين طرق توفيق باب بيتنا عشية احتلال المدينة كان ذلك بشارة زاهية الألوان ، فبعيدا عن الشعور بالانكسار كانت توجد مواساة مبعثها الخيال ، وأن الموصل ، في نهار قريب ، ستكون شبيهة بنيويورك . بدا على توفيق أنه يعرف أخي أكثر مما يعرفني . ولم يظهر في اليومين اللذين قضاهما معنا أي نوع من الحنين الاستذكاري إلى معاناتنا المريرة ، يوم كنا نحاول أن نعيش شبابنا . وزاد الأمر غرابة حين طلعت علينا شمس آخر أربعاء في نيسان لنجد أن كمال ليس في بيتنا . اكتفت نسرين بأن قالت لي وأصابعها متعانقة بقلق ارستقراطي إن كمال هرب من العراق .

رجحتُ أن تكون لتوفيق علاقة بهذا الأمر . الطريقة التي حدث فيها الاختفاء أجبرتنا على الصمت ؛ وقد أنكرت نسرين علمها بوجهة كمال ، وقالت إنه لم يكن بالإمكان تجنب هذا لأن كمال كان سيقتل في ظرف أيام ، ولكنها ما لبثت أن اختفت بالطريقة نفسها في حزيران من عام ٢٠٠٣ . وبعدها بستة أشهر عرفنا عن طريق معارفنا أن كمال وزوجته في سوريا .

لم تمل ماجدة ، طوال سنة ونصف ، من بث روح التآخي من ستوكهولم . كانت تجد في غصني الأمل الذي سيبقي شجرة الأسرة زاهرة وطيبة ، إلا أن ذلك كان بالنسبة لي يشبه إزعاجات القولون العصبي . وكثيرا ما كنت أصدمها بحقيقة أننا أسرة ملعونة ، وأن كمال لا يكلف نفسه استخدام الهاتف للاطمئنان علينا ، أو تسكين قلقنا عليه بقليل من الأخبار . وكنت أطلب منها أن تكون سويدية حقيقية بدلا من البكاء على أطلال علاقاتنا الأخوية . كان كمال قد ظهر مرة واحدة فقط عندما زار ماجدة في ستوكهولم ، وبرفقته زوجته وابنه البكر سالم ، وكان ذلك آخر التزام قام به تجاهنا ، حيث أبلغها أنه استقر بألمانيا وطلب منها أن تقول لي بالحرف الواحد : احتفظ بالملكة .

***

بعد مقتل والدينا عام ١٩٨٤ أخذ اسم كمال يعبّر عن الخيبة . كانا قد أمضيا أسبوعا في بغداد لتوديعه وهو يغادر إلى لندن للدراسة على نفقة الحكومة . وفي طريق عودتهما اصطدمت سيارتهما بشاحنة نفط تركية عند مصفى بيجي .

وعندما أخبره خالي محمود بالحادث ، عبر الهاتف ، نبهه كمال إلى أن علينا مطالبة الشركة التركية بتعويضات ، وقال إن عمر الإنسان في العراق خسارة . ما عرفته من أختنا الكبيرة مريم لم يكن أكثر من ملاحظات عارضة على سوء سلوكه ، وقد حاولت ، دون أن تمتلك موهبة الإقناع ، أن ترسخ في دماغي أنها هي التي أصرت على انتقالي للسكن في بيتها درءا لأحزان ترملها المبكر . كنت كثير التباهي بأخي الذي عاش أربع سنوات في بريطانيا ، إلا أن الصورة لم تتطابق مع الشخص الذي عاد من لندن فقد بدا أنه تفاجأ بوجودنا ، وأننا نشكل له عقبة . استولى على بيت الأسرة ، وتزوج من ابنة صائغ نجفي ، وقطع الأمل عن ماجدة بأن أبقاها في خدمة عروسه كنوع من الوجاهة . لم يطلب كمال مني العودة إلى البيت حتى بعد أن طلق زوجته التي اتضح أنها تعاني مرضا نفسيا . وبدلا من أن يحسّن علاقته بنا وجدناه ينصرف ، بهمة عمياء ، إلى إكمال مهمة تنظيف الموقع الرئاسي من الآثار الآشورية ، من أجل المحافظة على رفاهية القصور . كانت مريم تطلق تكهنات مفزعة ، وترى في أنانية كمال وعدم عودته إلى الموصل بعد مقتل والدينا ، جرحا عاطفيا يستوجب الحذر . كانت تحد من سلطته الذكورية ، وتفرض نفسها عليه ، وتنتقده في كل ما يقوم به محتفظة ، طوال معاناتها الطويلة مع سرطان الثدي ، بعدائها لطموحاته . وكانت تقول إنه ينتظر موتها كي يخلع عن وجهه برقع الحياء .

بعد وفاة مريم بسنة عرفت من خالتي فطومة أن أختنا الكبيرة كانت تشك في أن كمال له يد في تلفيق تهمة سياسية لزوجها سجن على إثرها مدة سنتين ؛ ليخرج بعدها مصابا بالشلل الكامل من أثر التعذيب . لم آخذ نظرية فطومة على محمل الجد ، فقد كان كمال صغير السن وقتها ، ولم يكن أكثر من شخص يجيد الاستفادة من سخاء الدولة ، ويوقع أكبر عدد من طالبات المرحلة الإعدادية في غرامه . بعد سفر بنات مريم إلى أعمامهن في الأردن ، سمح لي كمال بالعودة إلى البيت . لم أكن قد أنهيت دراستي في المعهد التكنلوجي ، وقد دفع غرامة رسوبي في المرحلة الأخيرة ومقدارها ألف دينار ، كي يشعرني أن عهدا جديدا قد بدأ . كان كمال وقتها قد تزوج نسرين وهي أرملة من أسرة النّومة تكبره بثلاث سنوات ، وأخذ يفكر جديا في تزويج ماجدة التي كانت توشك أن تتحول من شدة التضحية إلى صابونة قصيرة العمر . بقيت لفترة طويلة لا أعرف محددات لعاطفتي تجاه كمال ، فقد كان شخصا وسيما ، مصقول الوجه ، ويتحلى بكياسة . قليل الكلام وطويل الشرود إلى درجة الغموض . يختار ألفاظه بدقة ، وتعليقاته الهادئة تنم عن ذكاء . كان كثير السفر ، ويملك نظرة تقدمية لزوجته التي أمضت قسما من عمرها في اندونيسيا ، وتمتلك فكرة وافية عن المطبخ الصيني ، وتتقمص روحا بحرية إذا ما اضطرها العناد إلى استعراض اختلافاتها الثقافية عنا .

كان توفيق الحداد ، في ذلك الزمن ، خط عبور أبيض .

يعاملني باحتفاء ويحيطني برعاية عالية ، إلى حد أنني كنت أستغرب علاقتنا لغياب التوازن في الأهواء والعوالم ، باستثناء أنه يستفيد من براءتي باعتبارها نوعا من الكوميديا . يدفعني دائما إلى أن أكون مبادرا في التقرب إلى كمال ، وأن أكسبه وألا أتبنى موقف أخواتي . كان يتابع علاقتي بأخي ويحرص على أن أقفز متجاوزا الجزر الباردة التي تفصل بيننا . عشت تلك الفترة دون أن أملك القدرة على مكافحة تشتتي ، حتى وأنا أستسلم لنظرياته ، وأرى مثله أنه من العار أن يعيش المرء في بلد مخنوق الرقبة . تضربني تلك الهموم الطبيعية لشاب في العشرين ، فأبدو شديد الاستسلام بدلا من الظهور كمتمرد . كنت مثل ورقة سلق ذابلة ، وهذا ما كان يدفع توفيق إلى المبالغة في جري إلى عالمه ؛ فيأخذني معه إلى البارات لقضاء ساعات آكل فيها أطباقا عدة من الحمص بالطحينة من أجل إنهاء قنينة بيرة واحدة . وأرافقه إلى قرية السحاجي حيث كان يضاجع الغجريات الحنطيات بخمسة دنانير مع نصف دينار زيادة يدفعها لقاء تلصصي من النافذة . كانت قرية متهتكة ، بيوتها من الطين ومركونة في الصحراء ، والنساء على الأبواب يعرضن أجسادهن ، ويرغبن الزبائن بشتى الضمانات . وكان توفيق يميل إلى صبية بيضوية الثديين ومكتنزة ، كان يقول لها عني ، بينما أنا على أمتار من الطريق العام أراقب المشهد من النافذة وأعاني حمى التمدد الجنسي ، بأنني بطل العالم في العادة السرية ، وكان يضاجعها بطريقة تعليمية ، ويقول بأعلى صوته :

ـ أترى؟ . . يدخل بانزلاق سهل .

و :

ـ هذا هو الفرنسي يا جحش .

وفي آخر مشهد لي من هذا النوع في حياتي . بقيت لصق النافذة ، بعد مغادرة توفيق الغرفة ، أنظر إلى الغجرية وهي عائمة في الظلال ، تستعمل إصبعها في إزاحة قطرات العرق عن صدرها . وجدتها تستدير نحوي وتقول لي وهي تغطي مابين ساقيها بكفها :

ـ خذها نصيحة من قحبة . . كن حذرا من هذا الثور .

في عام ١٩٩٢ أصبح كمال مسؤولا بشكل مطلق عن التنقيبات السريعة التي كانت تجري على مساحة ميل مربع في موقع القصور الرئاسية على تل بالقرب من الغابات السياحية حيث يمكن مشاهدة دجلة ينحني كراقصة وسط خضرة فائضة . كانت تجربتي الأشد دهشة حين رافقني كمال إلى دائرة التجنيد الثانية وأنجز معاملة سوقي إلى الخدمة العسكرية الإلزامية في ساعة واحدة ، وأرسلني معززا بمعجنات تكفي لواء مشاة إلى تكريت مدة أسبوع ، ثم أعادني إلى موقع القصور الرئاسية بصفة جندي أقوم بصرف الأجور اليومية لعشرات العمال ، وأدخل بكل هيبة إلى القصر الكبير ، ومنحني شرف أن أتبول قبل الرئيس صدام حسين في حمامه الخاص الملحق بغرفة نومه الأسطورية . كنت قد تجاوزت محنة الخوف من أن أكون جنديا في حرب قادمة ، وبات من المؤكد أنني بدأت

انبهر بكمال . كان اسمه يتردد بتبجيل ، وكانت تلك الأجساد العملاقة بزي الحرس الجمهوري وبالشوارب التي تشبه مرمى كرة القدم ترتجف أمامه . الشيء الوحيد الذي سبب لي أزمة حقيقية هو التسليم بأن الحياة تختلف ، إذا ما اضطر المرء إلى العيش مع كمال في بيت واحد . لم أكن أقدر على أن أكون محايدا في علاقتي مع نسرين ، التي لم تكن تنتبه إلى احمراري الدائم وهي تجتهد في قلب نظام التدفئة والتبريد في البيت كي توفر الأجواء لتحررها . ترتدي الملابس التي تعطي تنفسا للجسد ، وترفع ساقيها عند الجلوس كما الأمريكان ما اضطرني إلى تجنبها ، قدر المستطاع ، وذلك بقضاء ساعات طوال في المكتبة التي احتلت أوسع غرفة في البيت . كانت أنفاسي تتقطع أمام المجلدات الضخمة التي تتكاثر يوما بعد يوم . قرأت في اختصاص كمال إلى الحد الذي أوجب علي الاستعانة به لدحر الغموض . بدا راضيا حتى إنني وجدته حنونا ويبذل مجهودا للتودد إلي والخروج عن تحفظه . روى لي قصصا خيالية مسهلا الأمر كي أستوعب تلك الروايات المتعددة لمسيرة التاريخ ، ودفعني وهو في حالة من الانتشاء والتسامي إلى أن أقرأ الروايات الكلاسيكية ومسرح شكسبير كي أحصل على تربية أخلاقية . وحين وجدني أهتم بالصحافة ولدي هوس أرشيفي ، وفر لي مجموعات كاملة لصحافة الخمسينيات المصرية ، وأغرقني بمطبوعات كانت تخصص للقصر الرئاسي وممنوع تداولها ، وأدخلني عنوة إلى مبنى جريدة

الحدباء كي أقدم تغطيتي الإعلامية الأولى حول معرض كتاب عالمي أقامته جامعة الموصل في مبنى مكتبتها ، وألحقني بكل الدورات الصحفية التدريبية التي تقام في مراكز الشباب دون أن يسمح لأحد بأن يكسبني لصالح توجه حزبي أو سياسي . كانت تلك التقلبات تجعلني في حيرة فهو أكثر ميلا للقضايا الكبرى ، وشديد التفاعل مع القصص الإنسانية ، ويفرض علينا النظام الانكليزي ، وكأنه لا يعترف بقانون تراكم الغبار وسيلان الزمن ، ولكنه في موقع العمل صباحا يبدو عكس ما كان عليه في مساء الأمس ، قليل التدقيق ومستعجل ويتصرف كشرطي . أراه يبيح بتعمد إتلاف الكثير من الأدلة التاريخية والمنحوتات الصغيرة التي كانت تظهر هنا وهناك ، ويعادي المعارضين في فريقه بأشد العقوبات ، ويسخف العديد من التوجهات الأثرية ، سواء تلك التي تدعمها الجامعة أو تلك البحوث التي تنشر في دوريات متخصصة . كنت لا أفهم كيف يمكن له أن يكون ملاكا في الليل وشيطانا في النهار . عذبني هذا الأمر كثيرا ، وخلق في نفسي نزوعا مرضيا إلى أن أكون كامل النقاء ، وأتعامل مع كل ما يحيطني بقانون الخير والشر .

كنت أرافقه إلى مواقع عمل الجرافات ، وكانت مسألة حفرة البحيرة قبالة القصر الكبير هي المعضلة الكبرى ؛ فقد كان يخشى الأشياء الكبيرة ويحث الجرافات على الإسراع ، ولا يتريث إذا ما ظهرت مربعات سكنية وصخور شاذة ، ويبدو مثل لص آثار في أسلوب اقتلاعه كسر التماثيل من جذورها الطبقية

فكان ينقلها بلا أدنى انبهار إلى خيمة كبيرة منصوبة على مرتفع ويحرسها فصيل من الجنود ، حيث يغيب فيها وقتا قصيرا ليعود بعدها كالح الوجه ومبقع بالحمرة ، فيأمر الجرافات بمواصلة العمل . دائما ما أعثر عليه بعد انتهاء فترة توزيع الأجور في عمق حفرة البحيرة يجاور جرافة هامدة ويبدو ، وهو يجلس على كومة تراب ، مثل منحوتة مهشمة الأطراف ومطموسة الملامح . أسحب حزنه إلى سطح أرض القصر وأنا أواسيه بصمتي الطائع ، وكان في أشد أوقاته غما يشتري زجاجة ويسكي فاخر من شارع الجامعة ويأخذني في جولة صامتة بسيارته في الغابات ، نستمع إلى السيمفونية التاسعة لبيتهوفن بينما هو يأخذ جرعات من الويسكي ويقرأ لنفسه أشعارا بالانكليزية .

كنا نصعد بسيارته إلى تل القصور في الساعة الثامنة من صباح يوم أحد هادئ الحرارة حين أوقفنا ضابط برتبة ملازم أول ، وقال لكمال بأن عليه التوجه فورا إلى موقع البحيرة . نسي وجودي ، كما هي عادته مع الأسرة كلها ، ورأيته يقف عند حافة الحفرة ويلقي نظرة صقرية . كان أنيقا والبروت يعمل دوامة عطرية حوله . انفرد بمساعديه قبل أن يهبط إلى العمق . كانت الجرّافات قد توقفت حين ضربت جسما مدفونا محدثة فتحة علوية تفضي إلى فراغ مجهول . استخدم كمال كشافات ضوئية في تفحص الفراغ وأوعز أن يتم الحفر على الجوانب بطريقة يدوية . استغرق الأمر أربع ساعات حتى ظهر أن الثقب

الذي أحدثته الجرافة هو في منتصف قبة من اللبن لبناء مستطيل الشكل . أمر كمال مساعديه بتتبع الحدود وإزالة الأتربة بأدوات التنقيب . وأخذت الجرافات على بعد أمتار تحفر مجسات استكشافية بينت أن ليس للبناء توابع . كان القلق يبدو على مساعديه وهم ينتقلون من حفرة إلى أخرى ، يغربلون التراب بأصابعهم بحثا عن معثورات صغيرة وفلق وكسر خزفية ، وكان كمال ينفعل في الرد على همساتهم ويتصرف كرجل أمن أمام خمسة أشخاص أحدهم يرتدي زيا عسكريا وقفوا يراقبون ما يجري .

ما إن أخذت الشمس بالنزول حتى كنا نقف بذهول أمام بناء اسطواني مقبب بعرض ثلاثة أمتار وطول خمسة أمتار له من الأمام إطار من طابوق مغاير يأخذ شكل قوس يوحي أنه المدخل وقد جرى غلقه بكتل مهندمة من الرخام الأسمر ؛ وهو الحجر نفسه المستخدم في بناء القصور الرئاسية . أخذ كمال يدور حول البناء ويحث على استخدام المحافير الصغيرة والفرش لمزيد من الإيضاح . كانت ثمة كتابات محفورة على الجوانب جذبت المساعدين فتفرغ كمال لقراءتها طالبا من الجميع تركه بمفرده . انقضت ساعة كان البناء قد ظهر بشكل كامل وصار تحت إضاءة كاملة بتغذية من مولدة كهربائية مدولبة أنزلت إلى موقع البحيرة .

اجتمع كمال بمساعديه واختار فريقا من شخصين . تجمعنا على بعد أمتار ونحن نشاهد كمال يحاول إحداث فتحة في

المدخل . جرى العمل بحذر شديد وكان أخي أول من دخل . بقي في الداخل مدة نصف ساعة خرج بعدها وأشار لي أن أقترب . رأيت بهجة على وجهه وكان يرتجف . قال لفريقه وأنا أقف بينهم إنه قبر الملكة . وردد بصوت عال :

ـ الملكة شمشو .

تعالت هتافات الفرح بينما الرجال الخمسة يراقبون المشهد وكأنهم في عزاء . سمح لي كمال بالدخول بعد أن تم تطهير المكان من الأتربة بمنافخ كهربائية . لم يكن المشهد كما تخيلت . ظهر القبر أمامي على شكل بانيو من فخار يميل إلى البياض ، يقف على قوائم قصيرة على هيئة حوافر وهو مغلق بلوح فخاري مصقول يعكس لمعة مجهدة ، وحافة البانيو العليا عند الغطاء تبرز إلى الجوانب ومشغولة بتموج يشبه فم المزهريات التقليدية .

كان شكل القبر لا يمت إلى الماضي وقد خلا تماما من الكتابات أو الأختام والخدوش . وكانت أرضية المبنى مرصوفة ببلاطات من حجر أسمر بقياس نصف متر ، مسطحة بدقة ، وثمة كوى متعددة مستطيلة في الجدران عليها أطباق فخارية دقيقة تظهر حولها آثار حروق . لم يسيطر أحد المساعدين على نفسه وهو شخص ضئيل الحجم يبدو غير فهيم بالشغلة ويفتقد إلى التجانس مع وظيفته ، راح يعيد ترديد جملة أنه أول اكتشاف من نوعه في العراق . أسكته كمال وبدا أن الأمر يحتاج إلى مزيد من الوقت والكثير من التأني .

في التاسعة مساء رفع كمال لوح التابوت فشعرت أن الهواء نهض ، وأن حفرة البحيرة انخفضت . كنت أرقب ما يحدث وأنا على بعد متر من مدخل المدفن . كنا قد أخذنا استراحات متقطعة وتناولنا طعاما فاخرا جاءنا من مطعم في شارع الجامعة . ورغم أننا قضينا نصف يوم في الموقع إلا أن ذلك لم يؤثر في همة الفريق ما عدا كمال الذي بدا في الساعات الأخيرة أكثر توترا وقلقا من الساعات الأولى . عثروا على عظام الملكة سليمة في أجزاء منها مع قطع معدنية تشير إلى أن شمشو كانت مجهزة بعدة حربية . تعرض كمال إلى انتقادات كثيرة من زميل له يدعى مروان ، لكن سرعان ما سيطر أخي على الموقف . اختلفت رائحة المكان وصار الغبار بنكهة أخرى .

كان منظر المدفن تحت الكشافات الضوئية يثير تحسسا في الروح . رأيته يعلو مستعيدا وجوده وهو يزداد بريقا مع مضي الوقت وكأن الهواء ينفخ تياراته باتجاه واحد لينظفه . أحسست بنفق بارد يغور في أعماقي ، وخلتني أسمع همهمات ، وأن أصواتنا تترجمها لغة أخرى . حين دفنا أبي وأمي شعرت بالخجل والمرارة فحفرة في الأرض هي اختيار مذل جدا ، وأننا نطمر البشر وكأنهم نفايات ، كما أن مقبرة وادي عقاب بتوحشها الصحراوي تبدو منفية عن الفصول ولم تذق المطر أبدا ، ويدل اتعاظنا على أننا نكره الحياة وآباءنا وأمهاتنا وإخوتنا ، وأننا نعذبهم وننتقم منهم ، وأننا لا نفهم الله .

اعترض مروان على قرار كمال بأن يبقى بمفرده مع تابوت

شـمـشو ، إلا أنه سـرعـان مـا رضخ بعـد أن رأى الرجـال الخـمسـة يؤيدون ذلك . وددت في تلك اللحظة الشـهبـيـة أن أشـعـر أخي أنني معه . أن أقول له كلاما جميلا فقد كان مختلفا عن الكمال الذي أعرف ، ويبدو أن شمشو أعادته إلى حقيقة أنه عالم آثار ، وأنه رجل جمال في المقام الأول . كان الإرهاق يظهر علينا جميعا لكنني كنت أنظر إلى ما يجري أمامي بطاقة كاملة . ازداد المكان توهجـا حين مـرت عظام شـمـشـو من أمـامي وهم ينقلونهـا إلى الخيمة . وجدنا كمال يتفحص باطن التابوت ويكتب شيئا في دفتر ملاحظات . استغرق الأمر نصف ساعة دون أن أعرف على وجه الدقة ما هو الأثر الذي شده إلى هذا الحد .

بدا كـمـال وهو يخرج من المدفن هش الملامح ، وخـيل إلي أنه سيتفتت ويتحول إلى غبار . وجدناه يقف على بعد خطوات قـبـالة المدخل حـيـث كـان الضـوء البـاهت ينبـعـث من أسـفل التابوت الفارغ . تراجع كمال إلى الخلف لكنه لم يلتفت إلينا . كان وحيدا ونحن نتابعه بصمت ، وأظن أننا كنا نتفهم افتتانه العميق . تراجع مرة أخرى إلى حد أنني خدعت بصريا وظننت أن المدفن الاسطواني بات بعـيـدا . وقف على خط الضـوء والظلام عندها بدا أضـخم مما هو في الحـقـيـقـة . زرّر الجاكـيت فعدت لأتحسس عطر البروت في أنفي . أخذ كمال وقتا طويلا قضيناه بلا حركة قبل أن يامر بأن تزيل الجرافات مدفن الملكة شمشو عن الوجود .

***

توقفنا بالقرب من فندق نينوى اوبروي الهرمي الذي بدا مظلما بطوابقه الأحد عشر المواجهة لموقع القصر الرئاسي ومنيرا في جهته المطلة على نهر دجلة . اشتريت له سجائر ومناديل ورقية . أخذ كمال يقود السيارة على طريق الغابات بسرعة غير مسموح بها وقنينة الويسكي بين فخذيه والراديو على محطة تذيع باللغة التركية . عاد باتجاه الفندق واستدار منحدرا نحو النهر . عبرنا منطقة كثيفة الأشجار قبل أن تظهر فسحة مفروشة بالحصى . أوقف كمال السيارة على بعد أمتار من النهر وترجل دون أن يتفوه بشيء . بقيت على مقعدي أراقبه بينما شبحه المتحرك يقاطع أضواء السيارة . أغلقت الراديو ما إن رأيته يتجرد من ملابسه ويلقي بها على غطاء المحرك واضعا مسدسه فوقها . تقدم حاملا قنينة الويسكي إلى أن غمره الماء حتى منتصف جسده . أخذ يشرب جرعات متتالية وكفه اليمنى تصد الماء . هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها حرا ومتجردا من كل ما يعرفه الناس عنه . أمسكت نفسي محافظا على خفتي غير المرئية . شرب المزيد من الويسكي وبدا أقل ثباتا وسط الماء المنفعل . حين غادرنا بوابة القصر طلب مني ألا أتكلم . هو دائما يضربنا على أفواهنا كما كانت تقول أختنا الكبيرة مريم . حين كانا يختلفان يطلب منها أن تسكت وأن تكرهه وتحقد عليه لكن بصمت . لم أتوصل بسكوتي الطويل إلى شيء . لا أعرف إن كان ينبغي علي أن أحتقره لكنني أدرك أن هذا لم يعد مجديا فهو أكثر قسوة على نفسه من إهمالنا العاطفي .

رأيته يسكب الويسكي على رأسه ثم يقذف بالقنينة الفارغة إلى عمق النهر . غطس ، وهو في مكانه ، مختفيا تحت الماء ليظهر بعد لحظات سابحا عكس التيار ، متوغلا في الظلام حتى غاب تماما عن بصري .

فتحت الباب وأخذت المسدس وعدت إلى داخل السيارة بسرعة . استعرضت بذهني خيارات طلب النجدة إذا ما طال الوقت ولم يعد كمال . تذكرت أننا بالقرب من الفندق ، وأن دوريات الشرطة لابد أن تكون موجودة في المنطقة . لم تطل غيبته . شاهدته يخرج من الماء متجها نحو السيارة . تصرف وكأنه بمفرده ووجدته يجلس على غطاء السيارة بجوار ملابسه ، حتى إنه لم يتفقد شيئا وبقي ينظر باتجاه النهر . فتحت الباب وترجلت . درت من الخلف ووضعت المسدس على ثيابه وعدت إلى مكاني دون أن أقول شيئا .

مرت دقائق ثقيلة قبل أن يرتدي ملابسه ويعود لتشغيل محرك السيارة . سألني إن كنت قد شعرت بالخوف . لم أجبه . مد يده وأشعل الضوء الداخلي . وجدته يمد يده إلى جيب الجاكيت ويخرج شيئا معدنيا تدلى من أصابعه أمام وجهي . كانت سلسلة تشبه المسبحة تنتهي بكف ذهبية تقبض على حجر أحمر .

قال بصوت مخدوش :

ـ قلادة الملكة شمشو .

قصربني

كنت أستقل التاكسي متجها إلى قصر بني ، عندما اتصلت بي مناسك ، على الموبايل ، وأخبرتني أن الطلاب خرجوا في تظاهرة ، إلى الشوارع ، احتجاجا على قيام الجنود الأمريكان بإلقاء القبض على ثلاثة طلاب ، من كلية التربية ، في الحرم الجامعي ، وأن الدنيا مقلوبة هناك ، وأنها محصورة في كافتريا الفنجان .

اضطررت إلى الترجل عند بوابة ادد الأثرية . كانت المدرعات الأمريكية متجمعة في نقطة تطل على الجامعة ، وكان يمكن رؤية العديد من الشاحنات متوقفة على الجسر . مشيت مسافة طويلة كنت خلالها على اتصال مع مناسك التي راحت تصف لي المشهد ، بعد أن اقتحم الجنود الكافتريا وأخذوا مواقعهم فوق البناية ، وقاموا بتفتيش روادها وإلقاء القبض على شابين كانا يدخنان الأرجيلة .

سمعت صوت إطلاق نار متفرق ورأيت ثلاثة مروحيات من نوع بلاك هوك تحوم في أجواء المكان . كانت الشرطة العراقية تسيطر على نفق المشاة القريب من مركز الشرطة ،

وتحتل التقاطع الذي يبدأ منه شارع الجامعة . وجدت الموقف تحت السيطرة ورأيت عشرات الطلاب وقد تجمهروا أمام المدخل الرئيس وهم يهتفون بشعارات مناهضة للاحتلال . كانت هناك لافتات وأعلام وشعارات مخطوطة على ورق مقوى علقت على سياج الجامعة ، ما يعني أن التظاهرة كانت منظمة . طلبت من مناسك أن تلتقط بعض الصور للمتظاهرين وأن توافيني إلى مقهى فراس للانترنت ، ريثما أقوم باستطلاع المكان وإجراء مقابلات مع الطلبة والحصول على معلومات . لمحت شرطيا برتبة ملازم أول فقررت أن أبدأ به ، إلا أن صياحا بدا مصدره من الرصيف المقابل شد انتباهي . وجدت جنديا أمريكيا يحمل بيده مجموعة أقراص ليزرية يصرخ بوجه طالب طويل القامة معضّل البنية يبادله الصراخ باللغة الانكليزية . لم تكن هناك مركبة عسكرية في الجوار ، ويبدو أن الجندي الأمريكي تخلف عن دورية راجلة . علا صوت الجندي بشتائم لاذعة وهو يلتحم بالطالب الذي ألقى بكتبه إلى الأرض وهجم على الجندي الذي فقد توازنه بسرعة . طرحه أرضا وصعد على بطنه وراح يوجه له اللكمات على مرأى من دهشة السابلة الذين تراجعوا أمام منظر العراك الذي شغل عرض الرصيف . كان الطالب يحاول تثبيت رأس الجندي الأمريكي موجها اللكمات في مساحة الوجه الظاهرة من الخوذة ، بينما الجندي يحاول الوصول إلى سلاحه إلا أن الطالب تمكن من إزاحة السلاح جانبا والاستمرار في توجيه لكمات متتالية وسط هتافات

تشجيع تعالت من شباب تجمهروا على مبعدة من الاثنين . رأيت عناصر الشرطة العراقية تسرع إليهما وما هي إلا لحظات حتى هجموا على الطالب ورفعوه من فوق الجندي الأمريكي وانهالوا عليه بالضرب والركل ، بينما الجندي يمسك بأنفه الذي أخذ ينزف بغزارة . اقتربت سيارة شرطة من المكان ونزل منها ضابط تصرف بتشنج وراح يركل الطالب في مؤخرته وأمر الشرطة بتقييده . ربطوا ذراعيه من الخلف واقتادوه إلى سيارة مكشوفة وقاموا بإسعاف الجندي . تعالت صيحات المتجمهرين على الرصيف . عندها تمكن الطالب المقيد بين شرطيين من النهوض منتشيا بالتصفيق الحار ، فأطلقت إحدى الطالبات زغرودة أشعلت الشارع بالهتافات فما كان من الطالب إلا أن ينحني بطريقة مسرحية لتحية الجماهير قبل أن تبتعد به سيارة الشرطة مخلية المكان لدورية أمريكية قامت بإخلاء الجندي وتفريق الناس .

وجدت مناسك تنتظرني في مقهى الانترنت . تجلس متلبسة بالكآبة على كرسي بلاستيكي وهي كالحة اللون بشالها العسلي وثوبها الإسلامي البني . تنفست بعمق ما إن رأتني وتبعتني إلى الزاوية المطلة على الشارع ، حيث احتفظ بملفات مخفية في جهاز كومبيوتر هو الأفضل برأي فراس .

لم أتوقع أن تكون الصور التي التقطتها مناسك بهذه الجودة . وجدتها تضحك بطريقة طفولية وهي تتلقى إطرائي . أخبرتني أنها أنجزت لقاء قصيرا مع الميجر ويمبر ، وأنها التقطت

صورا للكتب التي تم تسليمها إلى جامعة الموصل . سألتها إن كانت قد دققت في نماذج منها .

ـ لا يوجد أي كتاب تعود سنة طبعه إلى ما قبل عام الاحتلال .

قلت لها :

ـ جميل أن ندرك أننا أذكياء .

لوت فمها استنكارا وردت :

ـ أنا فقط من عليه إدراك هذا .

***

مناسك أذكى من أن تصدق أن منظمة هولندية تنفق أموالها على إعادة ترميم قصر بني ، وأعقل من أن تعتقد أن هذه الأجواء التي تحيطنا هي صورة متفائلة عن المستقبل .

طلبت من شريف ، وهو خادم عملاق عميق السمرة من أصول باكستانية ، أن يعد لنا الشاي والأرجيلة . اجتزنا الحديقة المربعة باتجاه الجناح الشمالي الخاص بالإدارة والأرشيف . تركت مناسك تغير ثيابها وتجهز المكان ريثما أتفقد أعمال التأثيث والتشطيبات الثانوية التي أوصيت عليها . كانت الغرف الداخلية على الشكل الذي تصورته ، وكل الانتيكات ومعها الصور في مكانها الذي خططت له . تأثر شريف برضائي وأخذ يحدد لي لمساته التي أجراها على الديكور . بدت الفضاءات المتداخلة منسقة وطافحة بالجاذبية ؛ وقد أعطت نسخ أباريق النحاس والسجاجيد المشغولة باليد مع الآلات الموسيقية المحنطة

على الحائط ، إيحاء أن الانقلاب العثماني حدث قبل نصف ساعة . أما المقتنيات التذكارية مثل أجهزة المذياع والغرامافون ومكتبة الاسطوانات وركن القراءة والأرائك التراثية الواطئة المصنوعة من خشب الماهوكني الإفريقي ؛ فقد كانت من ماركات أسطورية ومتآخية مع عمر المبنى .

كنت أتمتع بذوق حساس وأملك غيرة فنية عالية . هذا ما ادعى السيد صافي أنه ارتكز عليه يوم قرر تكليفي بمهمة الإشراف على قصر بني . حتى إن المهندس عبد الدائم وهو رجل كهل تقول عنه مناسك إنه شارك في تصميم جنائن بابل المعلقة كان يعتمد على فطرتي البصرية وتحسسي الفني في اكتساب الطمأنينة بشأن تعامله مع تحفة كقصر بني .

من المهندس عبد الدائم عرفت أسرار قصر بني الذي بقي طوال قرن طي الإخفاء ؛ فهذا البناء المستطيل الذي يطل على نهر دجلة بالقرب من القصر الأتابكي صمم على شكل جناح صقر يحتوي في المنتصف على أربع قاعات مفتوحة على بعضها مقاربة لشكل الصليب ، مبطنة بالرخام الذي تتوزع عليه نقوش بارزة من أغصان أشجار وأوراق عنب مع عناقيدها ، شبيهة بالنقوش الموجودة في محراب مرقد الشيخ قضيب ألبان ، تتخللها كتابات لآيات من الإنجيل والقرآن تعود إلى مدرسة الخطاط صالح السعدي . لا توجد في القصر كتابات تشير إلى سنة البناء رغم أن عبد الدائم يرجح أنها موجودة في مكان ما ، وأبدى شكوكا بشأن تحويرات داخلية أجريت على القاعة

الجنوبية ، وأن أحدهم ترك زخرفة مستطيلة ، ما يشير إلى أن الجدار كان نافذة أو مدخلا ، لكن المتفق عليه أن القصر يعود إلى الثري حنا بني وهو من أبرز شخصيات القرن التاسع عشر ؛ وقد جمع ثروة طائلة جراء رعايته لمصالح التجار الانكليز والفرنسيين ، وكان صاحب نفوذ ومنافسا قويا لعائلة رسام ؛ وقد مات مسموما في ظروف غامضة وأغلق القصر لعقود . ومع الاحتلال الانكليزي ظهر طبيب من عائلة رسام المسيحية ، نال شهرة واسعة في المدينة ، اسمه أوغسطين ، عاد إلى الموصل وبصحبته زوجته الايرلندية بعد أن أمضى عشرين سنة في لندن ، وكان على علاقة وثيقة بالكولونيل ليجمن ويرتبط بصلة طيبة مع السير ارنولد ولسن صاحب النزعة العسكرية المتشددة . اشترى مجموعة من البيوت المجاورة لقصر بني ، وبنى محلها ما يشبه القلعة ، معبرا عن التعالي الذي جعله في النهاية يخسر نفوذه ، حتى إن الأهالي كانوا يطلقون عليه لقب الأمير الانكليزي . كان لا يتكلم العربية عن كره وترفع ، ويضع منديلا على أنفه ، ويخاطب الناس على مبعدة أو بواسطة سكرتيره ، ولا يقدم خدماته إلا للطبقة الأرستقراطية . ثم ما لبث الدكتور أوغسطين أن ضم قصر بني إلى أملاكه ، وأحاط القصرين بسور مرتفع ، وحوّل جناح النسر إلى مبنى للخدم ، ثم انتقلت ملكية القصرين إلى عائلة السيد صافي بعد مقتل أوغسطين في عام ١٩٢٥ على يد شاب من جمعية العهد المناهضة للانكليز .

كان حنا بني يستخدم هذا القصر للضيافة ؛ فقد أدرك مثل أغنياء المدينة قيمة أن يرتبط بعلاقات واسعة ، وأن ينمي الوجود الأجنبي ، وأن يتدخل مع القنصلين البريطاني والفرنسي والمندوب البابوي لحل المشكلة الدينية في المدينة ، فقد أصبح للنساطرة الكاثوليك والكلدان وجودا معترفا به من الفاتيكان ، وبدعم فرنسي ، ما دفع الانكليز إلى الغضب وادعوا أن الكاثوليك في تحالف مع تجار الموصل لزعزعة الثقة بانكلترا ، فكان حنا الرجل الذكي الذي وظف انفتاحه الفكري لكسب كل الأطراف ، وكان قصره على دجلة مركزا ثقافيا لجذب الأوربيين ، وقد حرص على استقدام كل جديد مشجعا على المزيد من الاهتمام الغربي بالموصل . ويقال إن دوميه وسيبيليوس وكلود ديبوسيه وفوستو زينارو وسيرجي اكساكوف زاروا قصر بني ، الذي كان يشهد إضافة إلى اللقاءات الثقافية والسياسية ، حفلات راقصة وعروضا موسيقية ومسرحية .

لم يكن السيد صافي ، في البداية ، واضحا معي ، وأعتقد أنه أخذ يراقب نمو فطنتي مع ما كان عبد الدائم يثيره من فضول في نفسي بشأن تاريخ القصر ، وحين أوجزت له خطتي وخلصت إلى ما تحتاجه فكرة تنشيط الحركة الموسيقية في المدينة من مستلزمات ، سألني السيد صافي إن كنت أظن أن الأمريكان سيدركون بلاغة هذه الرسالة الموجهة إليهم ، فقلت له إن الانكليز سيقومون سريعا بإيصالها إليهم وإفهامهم معناها .

قلت لمناسك وأنا أنفخ الدخان في وجهها :

ـ عليك من اليوم أن تتدربي على فن الرقص الشرقي .
جددت لي فحم الأرجيلة وقالت بميوعة :
ـ سأرقص لك باليه إن كان هذا يجعلك أكثر فرحا .
إذا كان ييف سان لوران يفتخر بأنه وضع النساء في السراويل ، فأنا أتباهى بأنني وضعت مناسك على منصتها الحقيقية . في أكثر المناطق اختلاطا كالجامعة والعمل يكون من المحال إيجاد مساحة وسط بين العهر الصارخ والعفاف المقفل . لقد احتجت لسنتين كي أستسلم للحزن بشأن علاقتي بحنان . كانت ترى الجنس محاولات متكررة من أجل إنجاح التلقيح وليس متعة متعددة من أجل سعادة روحية ونفسية يشعلها الإغواء وتنميها تقنيات الحب . لم يكن بالإمكان تخليصها من الشعور بالإثم مع التعمق الذي يطرأ على طبيعتي الجسدية التواقة إلى التميز . كانت تقيدني حتى في اشتهاءات مراقبتي لها وهي تغيّر ثيابها . فشلتُ في توجيهها نحو أن تكون أكثر انتماء لجنسها ، وأكثر تحسسا وانفتاحا للحركة وللمناطق الموحية . كنت أناضل في تعليمها أن الأمر ليس له علاقة بعقارب الساعة وبتوقيتات الشهر وبغرفة النوم ، ولكنها كانت ترد علي بأنني لا أقدر قداسة أن يرانا الله وملائكته ، وأنني لا أعرف سوى نموذج المرأة العاهرة . كان ذلك إبطالاً لمفعول الرغبة وتعطيلاً ظالماً للغات الحواس . كنت أميل إلى الاعتقاد أن الشيء الأكثر تضررا في العراق جراء الحروب هو الجنس . لقد أدامت حنان في روحي فظاعة التعتيم وصفّارة الإنذار ، وبقيت

أعاني من ملابسات أن تفسر حركة أصابعي المتوددة لرقبتها على أنها محاولة خنق . كنت ، بحكم أوجاع عدم الانتماء ، تواقا لأن أكون لصيقا بامرأة واسعة الإحاطة ، وأطيافها قيادية . تشبه الإخطبوط ومبهرة . لم أكن ملائما للعلاقات العابرة ، ونزعتي الانكسارية تجعلني غريبا عن تربة الموصل مثل ثمرة أناناس . كانت مناسك من طيني . تمتلك موهبة التطلع إلى الكفاح . معادية لكل ما يضيّع منها دقيقة حياة . كأنها مستوردة رغم أن شكلها وملابسها يجعلانها شخصية من القرن الهجري الثاني .

كان صباح اليوم الثاني لي في العمل حين وجدتها تفتح باب مكتبي وتمشي نحوي سريعا لتقف وتلقي سؤالها الزلزالي :

ـ أنا مناسك المترجمة . هل يتوفر لديك أي كتاب جديد؟ . أرجوك ، أريد أن أقرأ .

ساعدتها في الحصول ، بمعاونة أصدقائي الصحفيين ، على القمامة الأمريكية وهي أشياء يسعد الجنود التخلي عنها مثل كتب الجيب والمجلات والجرائد ، وكانت مناسك تنتقد ضحالة أذواقهم إلا أنني كبحت عندها عادة التسرع . وفي يوم فاجأتها وهي تعلّم ، في السر ، موظفات الإذاعة والتلفزيون الكلمات الانكليزية البذيئة ، فالأمريكان كانوا يستغلون جهلهن ويتفوهون بكلمات مسيئة ، جاعلين من الموظفات حلقات تسلية وسخرية . أعجبتني جرأتها وانتصاب قامتها . لم

أشاهدها مترددة أبدا . وقد بذلت مجهودا من أجل أن تتدرب على فهمي ، فقد اكتشفت مبكرا أن هناك ضرورة لأن ننظر معا نحو نقطة محددة . كنا نتحاور في قضية أن نستفيد من الأمريكان على غرار التجربة النابليونية في مصر ، وقد نجحت محاولتنا مع الميجر ويمبر الذي كان يرافق قادة الفرقة ١٠١ في حضورهم اليومي إلى مبنى التلفزيون لتسجيل برامج حية يردون فيها على أسئلة المواطنين . كنا أنا ومناسك نحرز تقدما واستطعنا إقناع الميجر ويمبر أن يشرك مسؤولا عراقيا في البرامج الحية ، وفي جلسة شاي ، بعد تسجيل رسالة اعتذار وجهها قائد الفرقة ١٠١ الجنرال ديفيد بتريوس إلى الأهالي ، إثر قيام جندي أمريكي بقتل امرأة وطفلتها عن طريق الخطأ ، عرض بتريوس على مناسك أن تعطي محاضرات للجنود الأمريكان حول تاريخ المدينة وعادات الناس وتقاليدهم فقالت له :

ـ أنا أريد أن ترتكبوا المزيد من الأخطاء أيها الجنرال .

قال لها بتريوس :

ـ الأخطاء ثمنها قتل الأبرياء أحيانا .

فردت مناسك :

ـ هي في النهاية جرائمك سيدي الجنرال .

تردد مناسك على قصر بني كان بعلم السيد صافي الذي وافق أيضا على شراء لوحات لعفيفة لعيبي ، وإسماعيل فتاح الترك ، وراكان دبدوب كي نمنح الخلوة سمة شرعية . كان جناح الإدارة والأرشيف يتكون من صالة وثلاث غرف مع مطبخ

صغير . وأجمل ما في المكان المدفأة الجدارية في صدر الصالة والبارزة بديكور حجري عبارة عن زوجين من أعمدة رومانية ، تستند عليها فتاة عارية مستلقية على ظهرها ، وتمسك بيديها في منطقة السرة بشمعدان .

انشغلت مناسك بتقليب أوراقها بحثا عن شيء ما . كانت تبدو زاهية بقصة شعرها الكاريه وبالجينز الفاتح والبلوزة الحمراء المسبعة . حركتها وهي ترفع سيجارة الكنت من بين شفتيها لتأخذ رشفة قهوة جعلتني أجمّد نفسي كي أمنحها مزيدا من العفوية .

ـ لا مفر من إبلاغك لكن عدني ألا تفقدني استمتاعي .

قالت هذا وهي تنحرف بجلستها على الأريكة واضعة ساقا على ساق ، مجسمة فخذها الذي يتصاعد بامتلاء مثير . التزمت بسكوني ، فعادت لتقول وهي ترفع عدة أوراق بيدها :

ـ كريستيان ساينز مونيتر نشرت تقريرا عن آثار مدينة كلخو ، فيه حديث موسع لسوزان بوت خبيرة إعادة الإعمار في مكتب وزارة الخارجية الأمريكية . التقرير يتطرق إلى أن قصر آشور ناصر بال مهدد بالزوال نتيجة ما يسميه الأمريكان التدمير الناتج عن الإهمال .

ـ هل تقصدين أن كريستيان ساينز مونيتر سرقت تقريرك الذي نشرته الغد قبل شهرين؟

اعتدلت في جلستها فتهدلت البلوزة كاشفة عن منبت ثدييها :

ـ التقرير يذكر اسم كمال ويتهمه بأنه قام ببيع قطع أثرية في اسطنبول ، والتقرير اعتمد في ذلك على شهادة عالم آثار عراقي يدعى مروان .

ـ إنه مساعد كمال في مرحلة عمله في القصور الرئاسية .

ـ يبدو أنها وشاية .

طلبت منها أن تريني التقرير فقالت إنها لم تترجمه بعد . ألقت بالأوراق على الأريكة وجاءت لتحشر جسدها بين ساقي مستندة على ركبتيها . أرخت يديها حتى شعرت بملامستها لعضوي .

ـ هل انزعجت؟

ـ أهذا كل ما قاله التقرير؟

تراجعت متربعة على الأرض :

ـ سوزان بوت قالت إن مكتبها يتتبع آثارا يعتقد أنها موجودة في الموصل بحوزة أشخاص . هذا يجعلني أربط بين وجود الجنود الأمريكان في بيتك وبين قلادة الملكة شمشو .

ـ أهذا كل شيء؟

ـ ليس من السهل تصديق هذا الكلام ؛ فلو افترضنا أن كمال فعل ذلك فكيف يمكن له أن يكون طليقا في ألمانيا؟

ـ نحن لا نعرف حقيقة الأمر فربما تعرض إلى الاستجواب أو الاعتقال .

انتقلت مناسك لتجلس بجواري . واسترجعت تفاصيل كثيرة تخص سلوك كمال قبل هروبه ، وتصدر وجه مايكل صوري الذهنية ، ورحت أربط بين ما قالته سوزان بوت وما

جرى لي مع الأمريكان. لم أستجب لمحاولة مناسك جري إلى مراجعة استعداداتنا للحفل الموسيقي الأول. وبدلا من الرد على أسئلتها قلت وكأنني أكلم نفسي:

ـ لماذا يعقدون الموقف؟ ليس هناك أسهل من اعتقالي، وما شأن الجيش الأمريكي بهذا.

ـ لا تقلق.. اهتماماتهم دعائية والدليل ما فعلوه في موقع مدينة بابل الأثرية.

وضعت مناسك يدها على فخذي وتابعت:

ـ لا تشغل بالك بكلامي. أنا غبية كما تعرف.

قلت لها:

ـ وماذا عن توفيق الحداد وسندس؟ ربما يكون كمال قد هرب آثارا بمساعدة توفيق قبل الاحتلال الأمريكي. لقد كان ينقب في بقعة خلفية من القصر الرئاسي، ولمح كثيرا إلى أنه اكتشف شيئا مهما، وأنه يمتلك صلاحيات مطلقة في التصرف، وإذا كان توفيق متورطا في هذا فمن المرجح أن يكون كمال الآن مسجونا في ألمانيا أو عند الأمريكان.

ـ كيف عرفت أن توفيق وسندس يريدان الحصول على قلادة شمشو؟

ـ لقد ذكرها توفيق في رسالته.

ـ أعلم هذا ولكنني أقصد أن توفيق لم يقل إنه مرسل من كمال ليسترد القلادة منك، وهو ذكرها كي يشعرك بأن حنينه صادق.

ـ كيف عرف توفيق أنها بحوزتي؟

ـ من كمال بالتأكيد .

ـ كمال يحافظ دائما على بقعة صغيرة بيضاء في قلبه . لن يقترب مني ومن القلادة مهما كان الثمن . وإذا كان كمال متهما ببيع آثار مهربة فكيف يكتب توفيق قائلا بأن أخي حقق إنجازا وطنيا ، وتمكن من وضع الآثار العراقية في الخارج تحت وصاية دولية؟ كيف يمكن لشخص بذكاء توفيق أن يخطىء هكذا خطأ ، ثم إن توفيق لم يدخل غرفتي حين جاء إلى الموصل عشية احتلالها كي يحن إلى فوضويتها ، كما أنني لم أكن أبجل القلادة ، وكمال يعرف جيدا أنني كنت مرعوبا من وجودها معي .

ـ علينا أن نعرف أين كمال الآن ، وأن نتحقق من أنه هو الذي أرسل المال .

ـ أنا على اتصال مع ماجدة وابنتها هبة ستذهب إلى برلين خلال أيام .

ـ أعرف أستاذا في قسم اللغة الألمانية ببغداد . سأتصل به . هو صديق للسفير الألماني وعن طريقه قد نحصل على معلومات مفيدة .

ـ أعتقد أن توفيق هنا في الموصل منذ زمن وهو منهمك بعمل ما ولا يعرف شيئا عما تكتبه الصحف الأمريكية عن كمال .

ـ ولماذا لم يسع إلى اللقاء بك؟

ـ ربما لا يريد أن يثير شكوكي ، أو أن الوقت لم يحن بعد .

ـ ولماذا لا نفترض أن كمال هو الآخر هنا .

ـ كمال لن يعود ، ولا يحتاج إلى وسطاء .

ـ وماذا عن سندس؟

ـ يلزمنا القليل من الوقت كي نعرف .

وضعت مناسك رأسها على ساقي . سألتها :

ـ لماذا ربطت بين القــلادة ووجــود الجنود الأمــريكان في بيتي؟

ـ لأن تقرير كريستيان ساينز مونيتر ذكرها .

ـ كيف ورد الاسم؟

ـ قلادة شمشو ابنة سارة .

مذكرات هرمز

تعامل كمال مع القلادة على أنها تذكار يحق له الاحتفاظ به ، لذلك أبقيت حيرتي في علبة قلبي . كنت أستخدم صيغة مخاطبة لا تشي بأنني أعرف ما يجري ، وكان هذا لا يزيل حاجز الكتمان وإنما يعمقه ، وكأننا نسكن في دائرة أمنية . كنت أستغرب من قدرة نسرين على فصل عمل زوجها عن حياتنا في البيت ، حتى إنها لم تبد أي اهتمام بالقلادة ، رغم أن كمال كان يتأملها لساعات في حضورنا ، ويتكلم عن الملكة شمشو وكيف أن له نظريته الخاصة بشأنها .

مر أسبوع ثقيل والقلادة كنز له قيمته التاريخية كونها تعود لزوجة آشور بانيبال الأولى ، والذي يرجح كمال أنها ماتت بطريقة رومانسية . في تلك الأيام تعرفت إلى بواطن أخرى في شخصية أخي . بقيت لفترة طويلة لا أجد أي ربط بين ما فعله بعد هدم مدفن شمشو وبين الانتشاء الذي دام على وجهه مدة أسبوع ، إلا أن زهوه لم يكن أكثر من انحباس إرادي أدى إلى انفجار غير مسيطر عليه . فجأة انقطع عن العالم وانقلب مزاجه وأهمل مظهره وأخذ يشرب الكحول بكثرة ويكلم نفسه ليلا

وهو يتجول في البيت حاملا قنينة الويسكي . خلق لنا فوضى كبيرة واجهتها نسرين بتجاهل عجيب ، حتى إنه كسر مرآة بطول مترين مؤطرة بالعاج كان قد جلبها من الهند ، ومزق بسكين لوحة لضياء العزاوي كانت في غرفة الاستقبال . كنت أراقب نسرين وأقلد برودها ولا أفتح فمي . وفي يوم طرقت نسرين باب غرفتي طالبة مساعدتي . كان كمال في الحمام في حالة سكر شديد وقد أخذ يتقيأ وهو فاقد القدرة على النهوض . حملناه وغسلنا رأسه بماء بارد وبقينا معه حتى الفجر إلى أن استعاد شيئا من وعيه . وجدته يقول لي :

ـ كنت معي . . لماذا لم تمنعني من هدم المدفن؟

قالت له نسرين بعد أن أخرسني السؤال :

ـ ما علاقة جلال بالأمر . . أنت كنت تنفذ الأوامر .

ـ لا أحد طلب مني ذلك . فعلتها بإرادتي .

احتضنته قائلة :

ـ لأنك تعرف أنهم في النهاية سيطلبون منك ذلك .

في الواحدة من بعد ظهر اليوم التالي أخذني كمال معه إلى بلدة ألقوش . وصلنا إليها في ساعة . كان ينتظرنا عند لوحة مرورية ضخمة يبدو أنها محط فخر الأهالي عجوز في السبعين ، إلا أنه قوي البنية وسريع الحركة . كانت البيوت كئيبة المنظر ، ومغبرة ، والشحوب يبسط لونا باهتا على البلدة التي توغلنا فيها باتجاه الجبل . ترجلنا ورحنا نهرول خلف العجوز في طريق وعر حتى أوصلنا إلى بناء حجري ، على

السفح ، مسقف بالتوتياء ، وهناك استقبلنا شخص ضخم في الخمسين يدعى خوشابا بطوخا يعلق على كتفه بندقية صيد نوع بريتا . عرض كمال على الرجل صورة فورية للقلادة التقطها بكاميرا بولارايد . ابتعدا عنا ورأيت الانشراح يظهر على خوشابا وراحت ضحكته تعلو بين الحين والآخر . أخذنا العجوز بعدها إلى مزار النبي ناحوم . كان المكان بائسا ولم يحرك في نفسي الفضول . أبقاني كمال في السيارة وغاب مدة ساعة ونصف . وفي طريق العودة بدا أخي مرتاحا ، ومن حركة كفيه على المقود خمنت أنه يشعر بالزهو .

لا أعرف لماذا ينتابني الخذلان أمام الشخصيات التي تتمتع بغرور قوي ، وما هو سر الثقة التي تجعل كمال محاطا بعدد كبير من الذين لا يرون عيوبه . إنه أمر يشبه أن تحب فتاة طاغية الجمال أحد الحمقى . كنت ناقما عليه بسبب حالة العطش التي أعانيها ورغبته في أن يجعلني أصل إلى سؤال كهذا من تلقاء نفسي :

ـ من هؤلاء الذين قابلناهم؟ .

ـ حين نصل البيت سأعطيك قلادة شمشو . أريدك أن تحتفظ بها . سأقول لنسرين إنني سلمتها إلى ديوان الرئاسة .

سألته :

ـ وماذا أفعل بها .

ـ أبعدها عني . حتى إن طلبت منك أن تعيدها إلي . . لا تفعل .

ـ لماذا؟

ـ الأفعال المتوحشة هي التي تضع النهايات لكن من الحزن أن ينقطع التاريخ أو يموت . . أنت الوحيد الذي يستطيع المحافظة على الأشـيـاء الثـمـينة . أنت طيب القلب ، ونظيف الدم ، وتعرف ماذا تعني الكلمات . وحتى لو فقدت ثقتك بالوطن فسيبقى لديك الشرف والأمانة والإخلاص . وإن فقدتهم ليأس ما فسيبقى لديك الحب ، وهذا ما لا تستطيع أي قوة في الوجود تشويهه فيك .

***

كان كمال أحد تلامذة الانكليزي آرثر بلدوين الذي بنى سلسلة من الافتراضات كان ينظر إليها على أنها خيالية وغير مقبولة ، وكتابه عن ملكات نينوى جعله يخسر الكثير من التقدير ، وأن يعد بعد ذلك من أشهر المتطرفين في علم الآثار . في كتابه يربط بلدوين بين الملكة شمشو والنبي المسبي ناحوم ، مستندا بذلك إلى نتائج غامضة كان العراقي هرمز رسام قد توصل إليها في القرن التاسع عشر . ولأن رسام من خريجي جامعة اوكسفورد واكتشف مع هنري لايارد مكتبة آشور بانيبال وعمل في العراق بدعم من المتحف البريطاني ؛ فقد كان لذلك وقع خاص في خيال بلدوين .

فرضية علاقة الملكة شمشو بناحوم وردت في مذكرات هرمز رسام التي دونها في مسقط باعتبارها أسطورة محلية أصيلة يمكن الركون إليها أسوة بالأساطير التي جاء من أجلها

هنري لايارد إلى الموصل . كان هرمز قد تيقن أن التاريخ لن يسكت بعد الآن ، وأن كل حجر مدفون تحت الرمال يمتلك إرادة أن يخرج . ويبدو أن هرمز ازداد قناعة بأسطورته حين عثر على وثيقة مقنعة جعلته يبحث عن قبر الملكة عام ١٨٥١ ، وهو العام الذي عاد فيه لايارد إلى بلاده تاركا مهمة التنقيب عن الآثار إلى هرمز .

الحكاية التي رواها لي كمال تعود جذورها إلى أربعينيات القرن التاسع عشر ؛ وقد بدأت ما إن وصل إلى الموصل شخص انكليزي يدعى أوستن هنري لايارد ، جاء وفي رأسه الكثير من الآمال بشأن العثور على كنوز مدفونة ، معتقدا أن الكثيرين من المغامرين الانكليز والبعض من الفرنسيين الذين سبقوه إلى هذا الحلم ينقصهم الذكاء ولا يتمتعون بالإصرار اللازم . وفي الموصل عثر لايارد على الشاب هرمز وهو كلداني من مواليد ١٨٢٦ يتمتع بذكاء مميز ، يجيد الانكليزية وقد تحول إلى البروتستانتية متأثرا بأخيه الأكبر كريستيان ، الذي كان يسعى إلى كسب ود التجار الانكليز ، مستفيدا من علاقات واسعة تربطه بوالي الموصل . تنقل هرمز مع لايارد في مواقع عدة داخل الموصل وخارجها ، وقاما بتنقيبات أدت إلى نتائج مشجعة مكنت لايارد من الحصول على استثمارات لقاء وعود كان على ثقة من قدرته على تحقيقها ، كاسبا تعاطف القبائل بسخائه وفطنته واحترامه لتقاليدهم والتزامه بعاداتهم . وكان هرمز يظهر تقدما ملحوظا في فهم ما ينبغي عليه القيام به لجعل أحلام

لايارد في متناول اليد . سافرا معا إلى اسطنبول ، ومنها إلى لندن ، ثم عادا إلى الموصل حيث كانت جهود السفير الانكليزي لدى تركيا قد أثمرت في دفع رئيس الوزراء السير روبرت بيل إلى حث المتحف البريطاني على تمويل خطة التنقيب التي رسمها هنري لايارد . ولم تمض سنة على ذلك حتى تم الكشف عن مكتبة آشور بانيبال ، في تل قوينجق ، حيث تم شحن ٢٥ ألف رقيم طيني إلى المتحف البريطاني ، إضافة إلى تماثيل وبوابات شكلت النواة الأولى لعلم الآشوريات . الخبرة التي اكتسبها هرمز رسام في التنقيب أهلته لتحقيق مكاسب كبيرة لمصلحة المتحف البريطاني في كلخو ونينوى ، وتصحيح الأخطاء التي وقع فيها لايارد . ولم تقتصر جهود هرمز على الجانب الأثري ، فقد كلف بمهام سياسية ، وكان يبرهن في كل مرة على إخلاصه العميق ، الأمر الذي دفع الحكومة البريطانية عام ١٨٥٨ إلى تعيينه في محمية عدن قاضيا للصلح ، ثم نقل إلى مسقط كممثل عن بريطانيا في المفاوضات الدبلوماسية بشأن ميناء زنجبار ، لكنه عاد إلى الموصل عام ١٨٧٨ بتوجيه من المتحف البريطاني لمواصلة التنقيب في نينوى ، وهي الفرصة الذهبية التي مكنته لاحقا من معاودة البحث عن قبر شمشو ، إلا أنه أنفق ما لديه من أموال قبل أن يستدل على المكان الصحيح للقبر . وجد هرمز في التكريم الذي حظي به من أكاديمية تورين العلمية سنة ١٨٨٢ العزاء المناسب لخيبته الشخصية ، فتقاعد وسافر ليستقر في

لندن ، ولكنه سرعان ما اكتشف ، وهو رجل كهل ، أنه بلا تاريخ ، ويعامل كهمجي قادم من الصحراء ، فقد جرى مسح اسمه من الكتب ، وأضيفت إنجازاته إلى سجل هنري لايارد إلى حد أن مدير قسم الشرق الأدنى القديم في المتحف البريطاني واليس بج ، اتهمه بسرقة الآثار العراقية والمتاجرة بها ، وقد دافع هرمز عن نفسه أمام القضاء البريطاني ، وأثبت بطلان الاتهام وكسب الدعوى إلا أن ذلك لم يغير البرود الانكليزي تجاه إخلاصه فقد مات هرمز رسام عام ١٩١٠ دون أمجاد تذكر .

أراد آرثر بلدوين استمالة الحكومة العراقية بشأن قبولها تبني مغامرة البحث عن قبر الملكة شمشو ، بالاستناد إلى نظريته التي قال في مذكرة رفعها إلى السفير العراقي بلندن إنها اعتمدت على مذكرات سجلها هرمز رسام بالانكليزية حين كان يعمل في عدن ، وأن هذه المذكرات غير كاملة ومكتوبة في أربعين صفحة ؛ وقد حصل عليها في مسقط حيث كانت بحوزة رجل يتاجر بالمخطوطات ، وأنه اشتراها وعاد بها إلى لندن ليبني عليها بعد ذلك كتابه الشهير عن ملكات نينوى ، إلا أن الحكومة العراقية رفضت طلب بلدوين بسبب أن أوضاع الحرب مع إيران لا تسمح بالإنفاق على مغامرة غير مضمونة النتائج ؛ وقد عمل آرثر بلدوين على افتعال ضجة إعلامية للتأثير على قرار الحكومة العراقية ، متهما إياها بالتخلي عن إرث رجل عظيم مثل هرمز رسام ، وأنه يأسف لهذا الجحود الكبير سواء من الجانب العراقي أو البريطاني .

عمل كمال بعد عودته إلى العراق كوسيط بين عروض أستاذه المتكررة والحكومة العراقية ، وحاول مرارا تتبع القصة التي وردت في كتاب ملكات نينوى وفي أوراق هرمز التي أطلعه عليها بلدوين في لندن ، إلا أنه سرعان ما تخلى عن ذلك وتفرغ لإثبات وجوده وتنفيذ مهام جمهورية خاصة . وفي بداية عام ١٩٩٠ وجد كمال نفسه من جديد في لندن ، ولكن هذه المرة بقصد التفاوض باسم العراق من أجل الحصول على نسخة طبق الأصل من مكتبة آشور بانيبال لقاء مبلغ كبير يدفع للحكومة البريطانية . كان الانكليز على علم بأن هذه النسخة من المكتبة ستوضع في قاعة ملحقة بقصر صدام حسين المزمع تشييده فوق تل بمدينة الموصل ، وأن المبلغ المعروض يمكن أن يتضاعف بشيء من المراوغة ، وقد حدث هذا بالفعل وعقدت الصفقة . أمضى كمال قرابة شهر في لندن حقق خلالها عدة جلسات فنية مع المتحف البريطاني . كان أول عراقي يشاهد عن كثب مكتبة الملك آشور بانيبال . حتى هرمز رسام نفسه ، وهو ينتشلها على مراحل من عمق التراب ، لم يتسن له رؤيتها وهي على هيبتها الحقيقية ، مشعة بالغموض ومهيجة للخيال ؛ وقد رفض المتحف البريطاني في مرات عدة أن يسمح لهرمز برؤية ألواح الملك آشور بانيبال ، وكانت تلك أكبر طعنة إنكليزية لقلبه المحب .

يصف هرمز رسام في مذكراته التي حصل عليها بلدوين كيف أن أهالي بلدة ألقوش من المسيحيين واليهود دخلوا في

صراع جديد حول مزار النبي ناحوم عام ١٨٤٦ إثر انهيار جدران عدة من البناء جراء أمطار وسيول ضربت البلدة ، وأن الطرفين قبلوا في النهاية أن يتولى لايارد الإشراف على إعادة ترميم المزار ، إلا ان المغامر الانكليزي خشي ألا يكسب رضا الطرفين فنصب هرمز بديلا عنه وعاد إلى الموصل ليكون بالقرب من تل قوينجق .

الصراع الأول حول المزار وقع عام ١٦٥٠ . كان أهل ألقوش من المسيحيين يعتبرون النبي ناحوم ابن بلدتهم ؛ فهو ولد فيها من أسرة سباها الملك سنحاريب جد آشور بانيبال وجاء بها من الجليل قرب عماؤس إلى نينوى ، حيث استقرت بعد ذلك في بلدة ألقوش الحصن الأشوري المنيع ، حيث مسقط رأس النبي ناحوم وأخته سارة . وحدث في القرن السابع عشر أن رفع يهود ألقوش دعوى قضائية في اسطنبول للمطالبة بأحقيتهم في المزار ، وبعد ثلاث سنوات من المرافعات خسر المسيحيون الدعوى وردا على ذلك قاموا بنبش قبر النبي وإخراج عظامه وحفروا لها مكانا سريا في هيكل مار ميخا النوهدري ، ودفنوها خشية أن يأخذ اليهود عظام النبي إلى الجليل .

يقول هرمز رسام في مذكراته إنه كان يميل إلى اليهود في سعيهم للمحافظة على إرثهم ، ويروي كيف أنه تمكن من كسبهم ، ويصف عمله في المزار ، ثم تتوقف المذكرات عند صفحات مفقودة ليعود بعدها هرمز إلى الحديث عن رغبته في البحث عن قبر الملكة شمشو التي يعتقد اليهود أنها ابنة سارة

أخت النبي ناحوم ، وأنها تلقت تربية خاصة بعد أن تنبأ لها خالها ناحوم ساعة ولادتها أنها ستكون ملكة نينوى . ونقلا عن يهود ألقوش يورد هرمز أوصافا لشمشو مكللة بالعظمة والمعجزات ، وأن النبي ناحوم وهبها قلادة من الذهب فيها حجر كريم يعود لخاتم النبي سليمان ، وأنه تم إخفاء نسبها ودينها وعاشت حياتها في معبد للإله الشمس ، وأن شمشو ألحقت بالقصر لسمو مواهبها ، فقد كانت تمتلك القدرة على شفاء المرضى ، فضلا عن جمالها الأخاذ ، وأنها بقيت في رعاية الملكة الأم التي برأت من آلامها بمعجزة شمشو ، وأن آشور بانيبال وقع في غرامها وسعى إلى كسب قلبها بعد أن باتت تعامل معاملة الأميرات ؛ فاشترطت شمشو أن يحرر آشور بانيبال سبايا إسرائيل من أغلال العبودية ويسكنهم في مدينة قرب نينوى ، فوافق الملك وشرع في بناء قلعة كبيرة فوق تل إلى الشمال من عاصمته وتزوج شمشو. ويكتب هرمز أن ملكة الإمبراطورية الآشورية خططت لقتل زوجها وعملت على دس السم في شرابه ، بهدف الانتقام وتحرير شعب إسرائيل ، ولكن الملك اكتشف المؤامرة وقتلها بيده ودفنها في القلعة الشمالية بما يليق بعظمة حبه لها . وينقل هرمز عن يهود ألقوش قولهم إنه بعد سقوط الإمبراطورية الآشورية في ٦١٢ قبل الميلاد ، جرى نبش قبر شمشو واسترداد القلادة ، حيث أودعت في مزار النبي ناحوم ، وحين رفعوا الدعوى القضائية عام ١٦٥٠ تم صنع نسخة طبق الأصل من قلادة شمشو وقدمت هدية إلى

السلطانة خديجة تاريخان أم السلطان محمد الرابع ، الذي لم يكن قد بلغ وقتها سن الرشد ، وأن اليهود أقنعوا السلطانة خديجة بأنها القلادة الأصلية ، وأن حجر خاتم سليمان سيهديها إلى كسر شوكة الانكشارية إلى الأبد ، وإخماد ثورتهم التي أطاحت بالسلطان إبراهيم خان الأول ، وأنها ستجد من يملأ فراغ منصب الصدر الأعظم ، وأن السلطان محمد الرابع سيكون له شأن عظيم . وهكذا كسب يهود ألقوش الدعوى وعاشوا متنعمين برضا السلطانة الأم وابنها مدة أربعين عاما . ويقول هرمز إنه شاهد قلادة شمشو التي بحوزة يهود ألقوش ، وكانت تلك آخر جملة ترد في المذكرات التي حصل عليها بلدوين ، حيث إن الصفحات الأخرى مفقودة .

***

تعرضت طوال أسابيع إلى كوابيس دموية . كنت أصحو ليلا وأنا غارق في العرق إثر رؤيتي في المنام لجنود آشوريين يسلخون جلدي عقابا لي على سرقة قلادة ملكتهم شمشو . كرهت في كمال ميله لأن يكون غامضا . احتفظت بالقلادة في علبة ساعة يد في انتظار أن يتراجع أخي ويطلب مني أن أعيد القلادة إليه ، ولكنه لم يفعل ورجع إلى اتزانه المعهود وكأن لا شي حدث . الكوابيس التي كنت أراها حركت خيالي وعدت مجددا للتواري عن الأنظار لساعات في مكتبة كمال أقرأ الكتب التاريخية المترجمة ، إلى أن صرت أملك الأثر النفسي لإنسان سليم النشأة لكنه اقترف جرما غير مقصود .

كان شعوري بأنني سارق آثار يتعاظم ، وخططت لتسليم القلادة إلى الشرطة بطريقة لا تؤذيني ولا تضر أخي ، لكن الخوف تمكن مني وصرت انطوائيا ، وأخذت أشرب الويسكي سرا في غرفتي وأدخن بشراهة ، وأرى كمال بهيئة مجرم ورحت أتنقل بالسكن بين بيت ماجدة وبيت خالتي فطومة . كان كمال يعطيني مالا شهريا يسد كل احتياجاتي ، ولكنني وجدته يرسل لي مع نسرين مبالغ إضافية ويشتري لي ملابس غالية ، ويطلب مني أن أرافقه في جلساته الخاصة مع أصدقائه الذين كانوا ضباطا في المخابرات والأجهزة الأمنية الخاصة . وكانت تلك الجلسات تقام في فيلات بحي الطيران ، وفي فندق نينوى أبروي . كنت أظن أن كمال يحاول شراء سكوتي ، وأنه قد يخطط لقتلي . عرفت وقتها أن كمال أهم بكثير مما كنت أعتقد ، وأنه يريدني أن أندمج مع هذا العالم وأفهمه . نسيت تماما أنني جندي فبعد هدم مدفن شمشو صرت أتمتع بإجازات مفتوحة ، وكان كمال يجدد لي ورقة عدم الاعتراض بين فترة وأخرى إلى أن تسرحت .

كنا في حفل عرس بفندق آشور حين طلب كمال أن نقضي وقتا في البار . سألني إن كنت أفضل نوعا محددا من الويسكي ؛ فقلت له إنني أريد بيرة مع جن . كانت تلك هي المرة الأولى التي أشرب فيها أمامه وقد راقب شراهتي المتعمدة وعلى وجهه ابتسامة حقيقية .

طلب من البيانست أن يعزف سوناتا ضوء القمر وسألني :

ـ هل تكرهني؟

ـ نعم لأنك جعلتني لص آثار .

تعكر وجهه وهو يقول :

ـ كنت أظنك تفهمني وتثق بي .

ـ أشعر بالخوف يا كمال . هذا كل شيء .

ـ اللصوص هم الذين تراهم حولك وفي كل مكان. أما أنت فلا .

لم أمنع نفسي من البوح بكل الشك الذي في رأسي . سألته :

ـ هل كنت تنوي بيعها؟

ـ أهكذا فسرت ذهابنا إلى ألقوش؟

ـ خطر لي هذا .

ـ لو كانت القلادة تعود فعلا للنبي ناحوم لفعلت ذلك ، ولكنها تذكار حب مقدم من رجل عاشق إلى ملكة مؤابية .

ـ هل نظرّية بلدوين وهرمز رسام خاطئة؟

ـ نعم بالتأكيد فشمشو هي أميرة مؤابية اسمها آريو بيو من ذيبون التي هي الآن ذيبان في وسط الأردن ، وكانت تحت الحكم الأشوري ، وقد وقع آشور بانيبال في غرام المؤابية ما إن رآها في رحلة له إلى ذيبون ؛ فأمر تكريما لها أن يصهر سيفه الذي كان مقبضه من الذهب ، وأن يصاغ على شكل قبضة يدها ووضع في راحة اليد رمز ملكه وهو جوهرة حمراء كان يتزين بها ، وهكذا صنع قلادة ألبسها إياها وأطلق على آريو بيو

اسم شمشو وعاد بها ليجعلها زوجته وملكة نينوى . وقد ماتت شمشو وهي حامل . هذا ما كتبه آشور بانيبال في التابوت من الداخل واصفا إياها بملكة السماء والأرض .

ـ إذا كنت تعرف كل هذا فلماذا ذهبنا إلى ألقوش؟

ـ في عام ١٩٨٧ قررت الكنيسة الحفر في هيكل مار ميخا النوهدري لاستخراج عظام النبي ناحوم ، وقد أشرف على هذا القس هرمز صنا ، وأثناء ذلك تم الكشف عن صندوق يحتوي على حلي ذهبية كانت قد نقلت من الضريح مع عظام النبي ، ومن بين هذه الحلي النسخة الأصلية من القلادة التي أهداها اليهود إلى السلطانة خديجة تاريخان ، والتي تقول عنها الكنيسة إنها تعود في الأصل إلى البطريرك مار يهبالا الخامس الذي عاش في القرن السادس عشر .

طلبت المزيد من الجن فاعترض كمال وجعلني أستبدله بالبيرة .

سألته :

ـ هل هي القلادة نفسها التي رآها هرمز رسام؟

ـ نعم وقد رأيتها أنا أيضا حين قابلت القس هرمز صنا في مزار النبي ناحوم ، وتاريخها لا يزيد على القرن الرابع عشر مما يرجح عائديتها إلى البطريرك مار يهبالا الخامس .

ـ هل تشبه قلادة شمشو؟

ضحك كمال وقال :

ـ لا يوجد أي شبه بينهما .

الأمريكان في المطبخ

نفشنا الذعر . كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل . وقفتُ وسط الباحة الداخلية ، أحمل الفانوس ، يجذبني إيقاع الطرق على باب المطبخ ، وتجرني كلمات حنان التي أخذت تضغط على أزرار الموبايل ، وترجوني أن أتمهل ريثما تدخل إلى التواليت .

وجدت أمامي السيرجنت مايكل ، وقد خسف رأسه القمر ؛ فراحت قشرة خوذته تشع بهالة نورانية . حياني وهو يدفعني من صدري إلى داخل المطبخ :

- Hi Jalal

أحصيت أربعة جنود لحقوا به . آخرهم كان القصير الذي يقول لي دائما fuck you . نطقها ابن القحبة بحقد ، زافرا في وجهي رائحة سمك التونة . سلطوا على جسدي أضواء مصابيحهم اليدوية بعد أن استطلعوا بها المطبخ . ركز ابن القحبة الذي يقول لي دائما fuck you ضوء مصباحه على وجهي فنهره مايكل وسحبه من ساعده ضاربا على يده الحاملة للمصباح .

كانت حنان قد أصرت على تفكيك أخشاب غرفة النوم

مهددة بأنها لن تضع جسدها على سرير استخدمه الجنود الأمريكان لأغراض عسكرية . كان ذلك آخر ما قمنا به ، بعد حملة تفتيش طويلة استخدمنا فيها سلم أم باسل ووسائل مساعدة أخرى في فحص السقوف وقطع الأثاث في البيت كله بحثا عن أجهزة عسكرية دقيقة . دمرنا بهذه العملية العديد من بيوت العناكب ودققنا في متيبسات تعود لبعوض نافق وبراز ذباب وبيوض صراصير في اشتباهات بنيت على فرضية أن البيت مزروع بأجهزة تجسس متطورة جدا . وإكمالا للإجراءات ذهبت إلى خطاط هو الأشهر في منطقة الزهور وطلبت منه أن يخط لي باللغة الانكليزية على ورق مقوى : (Use Toilte please) و(Keep the Room clean please) وعدت لأعلقها على حائط غرفة النوم . أخبرت حنان بأنني أملك أفكارا قد تساعدنا في تخطي الأزمة ، وأبلغتها بنيتي كتابة رسالة استعطاف أعطيها للسيرجنت مايكل حين يأتي . لم تتحمس للفكرة ، رغم أنني اضطررت إلى مدح السيرجنت مايكل لما يبديه أحيانا من اهتمامات جمالية ، وعدت المحاولة بأنها سخيفة ، وراحت تتهمني بأنني لا أعي المعاناة التي نحن فيها ، ووجدتها تقول بانفعال إن الجيش الأمريكي ليس مارتن لوثر كنج .

انتبهت إلى دخول جندي خامس يحمل على ظهره كيسا عسكريا منتفخا ولكنه بدا خفيف الوزن . قال بالعربية :

- مرحبا .

تكلم السيرجنت مايكل طويلا مع الجندي الخامس الذي وضع كيسه على منضدة الطعام البلاستيكية ، ثم التفت إلي وقال لي بالعربية :

ـ يريد السيرجنت أن يوجه إليك بعض الأسئلة ، ويقول إن وجودنا سيكون لوقت قصير .

سألته بفرح :

ـ أأنت عربي؟

ـ أمريكي من أصل لبناني . . نريد أولا أن نفتش البيت .

تبعتهم إلى الباحة الداخلية . ابن القحبة بقي في المطبخ لتفتيش الدواليب . اثنان صعدا إلى الطابق الثاني ، وأسمن الجنود ذهب باتجاه الحمام والمخزن بينما بقيت برفقة اللبناني . أشار مايكل إلى غرفة المعيشة وهو يتكلم مع اللبناني الذي ابتسم والتفت إلي قائلا :

ـ السيرجنت يحترم تعاونك وهو معجب ببيتك ، ويسأل إن كانت عائلتك في هذه الحجرة ؟

أومأت له برأسي وأنا أشعر بالخيبة من الطريقة الرسمية التي يكلمني بها . انضم ابن القحبة إلينا . بادلته النظرة الحاقدة نفسها ، وأنا أحاول أن أصغي بانتباه إلى الحوار الدائر بين مايكل واللبناني . هبط الجنود من الأعلى وعاد السمين من الحديقة الخلفية ، تاركا الباب مفتوحا فاجتاحتنا هبة هوائية باردة أرجفتني . شعرت بقلق شديد فهذا أسرع تفتيش في تاريخ احتلالهم بيتي ، كما أن ترقبي الأسئلة التي سيوجهونها

إلي أخذ يحدث في أمعائي مفعولا سيئا . كانت كثافتهم في الباحة الداخلية مفزعة ، والظلال التي تنضح من البنادق والسترات الواقية من الرصاص والخوذ الناطحة للسقف تفتت مناعتي الرجولية ، وتهز القناعة التي حصلنا عليها ، أنا وحنان ، من حملة نبش البيت فاحتمال أنهم أخضعونا إلى مراقبة تجسسية فضائية بدت لي ، وأنا وسطهم ، أكثر واقعية من وجودي في هذه الدنيا .

لمست اللبناني من ساعده فالتفت إلي . تجرأت وهمست له :

ـ استحلفك بحنين دمك اللبناني الأصيل أن تساعدني . . هل أنا في موضع اتهام أو شك؟

نظر في وجهي طويلا وكأنه يحاول تذكر لوعة حنين الدم لأرض الأجداد ، وقال بصوت مثلّج :

ـ لا أدري .

بلعت ريقي مسترجعا روحي . اقترب مايكل منا وراح يتكلم وهو يركز بصره على عيني . قال لي اللبناني :

ـ نريد الجلوس معكم في المطبخ للتحاور .

قطعت صيغة الجمع التي تكلم بها معي أي أمل لي في استمالته . تبعتهم إلى المطبخ . همس اللبناني في أذني :

ـ أحدهم يفهم العربية . انتبه لكلامك معي .

أمر مايكل جنوده بالبقاء في الباحة الداخلية . أغلق الباب . رفع المزهرية الخزفية التي كانت تتوسط المنضدة ونقلها إلى أعلى ثلاجة الـ westing house ثم وضع مصباحا يدويا

على طرف المنضدة، ووجه نوره عكس باب المطبخ الخارجي. ضغط على كتفي بيديه وأجلسني إلى المنضدة واستدار ومعه اللبناني وجلسا قبالتي. خلع مايكل خوذته وأشعل سيجارة من علبة لم أتبين نوعها. نقر بإصبعه على المنضدة واندمج في حوار مع اللبناني الذي شبك أصابعه قبل أن يقول لي:

ـ نريد أن نعرف إن كنت قد تعرضت إلى مساءلة من أحد حول الزيارات التي نقوم بها إلى منزلك. هل تكلم جيرانك معك؟ هل أبدى سكان الحي أي شكوك، أو عبروا عن انزعاجهم أو وجهوا إليك انتقادات؟

قلت وفكي يرتجف:

ـ لم يحدث أي شيء من هذا؟

ترجم اللبناني كلامي وسألني بتحريض من مايكل:

ـ لماذا برأيك لم يحدث هذا؟

أجبت:

ـ اعتقد أنهم نظروا للمرة السابقة على أنها عارضة وعدوها عملية تفتيش روتينية أو أنهم لم ينتبهوا أو يشعروا بشيء. ربما أتعرض إلى هذا مستقبلا أو في الغد. أنا قليل الاختلاط بالجيران، وهناك نوع من الاحترام لخصوصيتي. البعض ينظر إلي من باب أنني يابس الأنف ولا أجامل الناس، وأعتقد أنني بعين الكثيرين شخص معقد.

بدت الدهشة على ملامح مايكل ونقل لي اللبناني تعليقه قائلا:

ـ معلوماتنا تشير إلى أنك شخصية مرموقة في الحي ومن عائلة معروفة وعريقة .

أجواء الحوار الودية أنعشت شجاعتي فوجهت كلامي إلى اللبناني :

ـ قل لهم إن هذا لا يعني شيئا إذا ما استمر الجيش الأمريكي في التواجد ببيتي .

استمع اللبناني إلى كلام مايكل الذي أخذ يحرك يديه مثلنا وهو يتكلم ثم التفت إلي وقال :

ـ يتساءل السيرجنت عن سبب تقديمك شكوى إلى القيادة إن كانت الأمور تجري دون مشاكل ولم تتعرض إلى مساءلة من قبل جيرانك؟

ـ أنا شعر بالخوف .

قال مايكل ضاحكا :

ـ أنا أيضا أشعر بالخوف .

نظرت إلى اللبناني فقال موضحا :

ـ عليك أن تذكر دوافعك وتجعلها مفهومة .

ـ عائلتي في خطر .

ـ هذا الكلام غير مفهوم للأسف .

قال مايكل وقد بدا عليه الانزعاج :

ـ نحن هنا لمساعدة بلادك على التخلص من الأعداء . نحن نساعد القوات العراقية على فرض الأمن ومحاربة أعداء العراق . جنود الولايات المتحدة يخاطرون من أجل سلامتكم .

نعلم صعوبة هذا ولكن ما نقوم به هو من أجل أن تكون مناطقكم السكنية آمنة .

قلت لمايكل :

ـ أنا فقدت حريتي في بيتي وأسرتي معرضة للخطر . أنا مواطن مسالم ولم أقم بنشاطات معادية لجنود الولايات المتحدة الأمريكية ، الأمر الذي يلزمكم باحترام حريتي .

عدّل مايكل من جلسته وشد وجهه بنظرة سددها نحوي ، وفعل اللبناني الشيء نفسه وهو يترجم لي الكلام :

ـ تأمين سلامة العراقيين تتطلب أن نتواجد في بيتك بين الحين والآخر للقيام بعملية مراقبة . لست مخولا لإخبارك بهذا ولكنني أتعاطف معك وأريد أن تشعر بالاطمئنان . الأوامر العسكرية تتطلب منك التعاون والبقاء في المنزل وعدم تركه ، وإبلاغنا في حالة تعرضك إلى مضايقات من الأهالي وشعورك بوجود خطر يهدد أسرتك ، وأي معلومة مفيدة تصلنا منك سننظر إليها بتقدير . هذا الوضع سيكون مؤقتا ونحن على استعداد لتقديم الدعم المادي لك لقاء ما يمكن أن يعد تنبيها قبل وقوع الخطر . أنت بتعاونك لا تساعد جنود التحالف وإنما تساعد بلادك .

تبادلنا النظرات وسط صمت تام . . سألت مايكل :

ـ هل أستطيع أن أرفض هذا؟

ترجم اللبناني رده :

ـ كلا .

سألته بالانكليزية :

- لماذا؟

أشعل مايكل سيجارة أخرى وقال :

- نحن في حالة حرب .

قلت :

- ماذا لو اعترضت وقدمت طلبا بهذا إلى وزير الدفاع الأمريكي؟

سألني مايكل :

- هل معنى هذا أنك ترفض التعاون؟

- من الطبيعي أن أشعر بالسعادة لو عشت في بيتي بحرية .

- أريد جوابا محددا من فضلك .

قلت :

- لن أكون مفيدا لجنود التحالف في مسألة المعلومات ، ولا أعتقد أنني سأمتلكها في يوم ما ، كما أنني أرفض أن تتخذوا بيتي مسرحا لعمليات عسكرية ، وسأعمل على وقف هذا بوسيلة قانونية . أنا أرى العكس . وجودكم في بيتي يهدد أمن أسرتي ويشكل عبئا ثقيلا لا أقدر على احتمال نتائجه ، وأي محاولة منكم لحمايتي ستكون فاشلة وغبية لأنني سأتعرض عاجلا أم آجلا إلى خطر كبير بسبب وجودكم في بيتي .

قال مايكل :

- أردنا أن نظهر لك اهتمامنا . نحن نؤدي واجبا عسكريا

ولكن هذا لا يمنع من وجود عنصر اللطف والاحترام . أنت كنت شجاعا طوال الفترة الماضية وهذا أمر نقدره جدا . لا أدري ما هو موقف السيد وزير الدفاع حين يستمع إليكِ ، وإلى حين صدور قرار بهذا عليك عدم تغيير مكان سكنك .

ـ هل تفرضون علي الإقامة الجبرية؟

ابتسم مايكل ففعل اللبناني الشيء نفسه :

ـ بقاؤك في البيت يعني أن الأمور ستسير بشكل طبيعي . نحن نريدك موجودا وسنعمل على عدم إحداث ضجة كبيرة .

ارتسمت على وجوههم ابتسامات ودية تتصنع البراءة .

سألت مايكل :

ـ ما أخبار الأرنب الأعور؟

ـ لقد انتهت . . العملية الجديدة اسمها النملة سالي .

ضحكنا بعمق فشعرت بالراحة وعرضت عليهما شرب الشاي فصفق مايكل مرحبا بالفكرة وكذلك فعل اللبناني . أشار مايكل بإبهامه إلى الخلف وسألني :

ـ هل الثلاجة تعمل بشكل جيد؟

قلت :

ـ منذ أن اشتراها أبي سنة ١٩٦٣ وهي تعمل دون توقف . أنت تكرر هذا السؤال كثيرا . ما رأيك أن أعطيك إياها مقابل ألا تعود مرة أخرى؟

ضحكوا بانفعال ، فاستعاد مايكل وقاره وقال :

ـ الصناعة الأمريكية جيدة أليس كذلك؟

ـ هذا صحيح . . لو أنكم اكتفيتم بصناعة الثلاجات والسيارات لكان العالم الآن بشكل مختلف .

ـ أتظن هذا . . أنت تكرهنا يا سيد جلال .

ـ نعم ويزداد هذا عندما أشعر بالرعب .

ـ أهذا هو انطباعك دائما؟

ـ عندما تهبط من غرفة نومي في الأعلى بلا سلاح وأكون أنا ملتفا بالبطانية أعاني الخوف والقلق والحزن على كل ما يحدث ، أشعر أن ثمة خطأ قاتلاً في هذا . كنت أود دائما أن أسألك : هل تبحث عن أمك يا ولد .

ـ هل يبدو عليّ هذا؟ .

ـ نحن مهما كبرنا نحتاج إلى الحنان . أين أسرتك الآن؟

ـ في تكساس . . لدي زوجة وثلاثة أطفال .

ـ هل تحمل صورهم في الخوذة؟ أرى ذلك في الأفلام الحربية . . عادات الجنود لا تتغير على ما أظن

ـ صحيح . . أنا أحملها هنا في جيبي .

ـ ها . .

ـ هذه زوجتي جينا ، وهذا مارك ، وجون ، وجاكلين .

ـ لك زوجة جميلة جدا .

ـ أشكرك

ـ هل لك أقارب أو أصدقاء من المشاهير . . يعملون في السينما مثلا .

ـ كلا . . ماذا تظن يا رجل

ـ أراك مميزا يا مايكل وليس فقط في هواية حب الثلاجات .

ـ أنا لاعب كرة سلة جيد جدا .

ـ ولكنك سمين مثل دب .

ـ نحن الجنود لا نبدو بأحجامنا الحقيقية . . إنها الواقية والتجهيزات الأخرى .

ـ أنا أمزح معك .

ـ أنا آكل كثيرا . . أحيانا لا أقاوم إغراءات تناول وجبات إضافية مع العراقيين . . إنهم يجلبون طعامهم من بيوتهم .

ـ من المؤكد أنك أكلت الدولمة؟

ـ أجل كيف عرفت؟

ـ أنتم تحبون الطعام . حتى سكان التبت يعرفون هذا .

ـ أنتم تصنعون شيئا مشابها للبيتزا هنا .

ـ نعم .

ـ وأكلت الكبة أيضا .

ـ لقد انتهيت يا مايكل . . بربي انتهيت .

في الأندلس

وقفنا ، أنا وإبراهيم توسان على حافة الرصيف ننظر إلى عنبر عربانة وهو في أعلى واجهة سينما الأندلس ، يدق على الخشب شيت فيلم القيامة الآن . انضمت إلينا مناسك مع صديقة لها اسمها ريم تعمل مراسلة في الـ BBC ولحق بنا شاكر البدران قادما من مكتبة الأوقاف . كنت قد وقعت قبل أربعة أيام عقد استئجار السينما بكل ما فيها مدة سنة قابلة للتجديد ، وأنفقت مبلغا كبيرا على إعادة تأهيل آلة العرض ، وتجديد المخزن ، وطلاء الجدران ، وتنظيف الصالة ، وكلفت شخصا أرمنيا تعدى السبعين بمهمة فحص الأفلام القديمة المتوفرة ، وإجراء الصيانة اللازمة عليها ، وترقيع فيلم يمكن عرضه في حفل الافتتاح . انقلب تجمعنا إلى تجمهر جذب انتباه السيارات ودوريات الشرطة ، الأمر الذي أغرى عنبر بالرقص والقيام بحركات بهلوانية دفعت أصحابه من باعة الرصيف إلى مرافقته بتصفيق إيقاعي .

فرّق إبراهيم الناس وهو يرد بعصبية على أسئلة استفزت جديته . أغلق البوابة الحديدية السلايد ودفعنا إلى الداخل .

وجدنا الباحة نظيفة ونقية الهواء ، والأبواب لامعة ، ويبدو أن جهدا مميزا قد بذل في إزالة الأتربة عن هيكل الحانوت والسقوف الثانوية الخشبية . منعني عنبر من ارتقاء السلم إلى صالة العرض ووجدته يخرج من جيبه شريطا أحمر أعطى طرفه لمناسك وسلمني مقصا صغيرا . شكرتهم وقلت لهم إنني لست أكثر من وسيط ، وإن إنقاذ سينما الأندلس جاء بإرادة أشخاص يؤمنون بالتحدي ، وهو أمر قد لا يغير من المأساة شيئا لكنه رد شجاع على كل من يقف ضد الحياة .

شدنا منظر الكراسي الحمر النظيفة المنحدرة في تشكيلين طويلين حتى خامة الشاشة الضخمة . انفجرت فرحتنا ورحنا نتبارى في إطلاق الصفير بينما مناسك وريم تصفقان بقوة . احتضنني إبراهيم وتبعه شاكر البدران الذي قال بصوته الأنثوي :

ـ من اليوم سأبدأ باحترامك .

ابتعدت عنهم واخترت كرسيا لأشعر بذلك الترقب الذي طالما اشتقت إليه . لم أكن الوحيد الذي فعل ذلك . همست مناسك من الخلف :

ـ هذه المرة الأولى في حياتي أدخل سينما . . كيف تشعر؟

وزع عنبر بيرة ماركة توبورغ ومياهاً غازية فعادت مناسك لتقرب فمها من أذني :

ـ لا تأخذك الفرحة كثيرا . . سنحتفل في بيت خالتي .

خفت الأضواء وانطلقت في الصالة أغنية قارئة الفنجان لعبد الحليم حافظ . قلت لإبراهيم الذي كان على الطرف الأيسر :

ـ انزل وافتح الباب .

اعتدل وسألني :

ـ لمن؟ .

ـ للناس . . لكل من يحب أن يدخل إلى السينما .

ـ هل جننت؟

نهضت واستدرت باتجاه فتحة آلة العرض ، وصحت بأعلى صوتي :

ـ عنبر . . هل أصلحت جرس السينما؟

جاءني صوته مخنوقا :

ـ نعم أستاذ .

ـ أسمعني إياه .

قال شاكر محذرا :

ـ قد يندس أحدهم ويقذف بقنبلة يدوية . . وجودنا الآن مخاطرة كبرى . ربما هم ينتظروننا أن نخرج ليقتلونا .

نهضت مناسك وجاءت لتقف بجواري قائلة :

ـ أنا معك يا جلال . . عد إلى مكتبتك إن كنت خائفا يا شاكر .

رد شاكر :

ـ لو كنت خائفا لما شاركت بهذا . هل نسيت تفجير سينما

النجوم وكيف قتل العشرات وسينما أطلس التي هدموها . إذا كان لابد من تضحية فسنتحمل نحن هذا وليس هناك حاجة لإشراك أحد .

قالت مناسك :

ـ نحن ميتون ميتون .

التفتت إلي وتابعت :

ـ أنا سأفتح الباب .

أوقفها إبراهيم :

ـ أنا سأفعل ذلك .

نهض متباطئا كأنه يمنحني فرصة للتراجع . وصلنا رنين الجرس قويا . تحولت مناسك لتجلس بجواري . أخذت يدي ووضعتها أعلى فخذها . قلت لها وأنا أشعر بنمل يسبح في دمي :

ـ أتمنى أن يتشجعوا .

ـ لن يخذلوك .

ـ هم خائفون .

ـ نحن أكثر خوفا .

ـ كنت شجاعة قبل قليل .

ـ لن تخسر حلما مادمت حية ، وسأدافع عن أحلامك بحياتي .

ـ ليتهم يتشجعون

ـ سيتشجعون . . لا تقلق .

ـ هل أنت واثقة؟

ـ واثقة . .

ـ ماذا لو دخل أحدهم بحزام ناسف وفجرنا؟

قالت بعد صمت :

ـ أحب أن نموت معا في لحظة واحدة .

وافقتها :

ـ إنه شيء جميل بالفعل .

ـ أتدري . . سيختلط لحمنا ودمنا . . هل فكرت في هذا؟ . . الموت بقنبلة أو حزام ناسف أو سيارة مفخخة شيء رائع في الحب . أريد أن نتمزق كليا . نندمج تماما .

ـ قد يحدث هذا فعلا الآن . . لا بد أن خبر تعليق شيت الفيلم قد وصل إلى الخفافيش .

ـ كيف لم يخطر هذا ببالي . هذا بالضبط ما أريده . تخيل أن يكون قسما من لحمي في قبرك . يا لها من روعة .

ـ معك حق ، هذا منتهى الرومانسية .

ـ خوفنا في السابق كان عاديا مثل البشر ؛ لذلك كنا نخاف ، أما الأن فخوفنا يحتلنا بشكل كامل إلى درجة أنه قتل فينا لحظات الأمان . حين كنت صغيرة كنت أحزن على الفيل لأنني كنت أعتقد أنه يجد نفسه ضخما ولا يشبه الحيوانات . كم كنت غبية لأنني لم أفكر وقتها أن الفيل يعيش مع فيلة يشبهونه ، وأنه يشعر بالكبرياء وينظر إلى الحيوانات بازدراء لأنهم أقزام . . ليتهم يفجروننا .

ـ أن نكون في قبر واحد هو أمر جميل ، لكن ما علاقة الفيل بالموضوع .

ـ لا أعرف . . ربما لأنك ذكرت الخفافيش .

ـ ممكن . .

ـ ليتهم يفجرونا الآن .

ـ لقد أحببت الفكرة .

ـ على القنبلة أن تكون لنا أنا وأنت فقط . . لا أحب أن تكون قطعة من لحم شاكر الوسخ في قبرنا .

ـ إنه يجلس بعيدا .

ـ أنا أحب الصحافة الآن لأنها قد تمنحنا فرصة أن نموت معا في لحظة واحدة . . ما أجمل الإرهاب في الحب . . ربما نبقى مليون سنة في قبر واحد قبل أن يحل يوم القيامة .

ـ ألا تخافين الموت؟

ـ أحبه جدا وأشتهيه إن كان كما أتخيل الآن .

عادت لتقول :

ـ انظر يا جلال . . إنهم يدخلون .

ـ خمسة أشخاص .

ـ سبعة .

ـ تسعة .

ـ مترددون .

ـ لا يصدقون .

ضحكتُ من كل قلبي وقلت :

ـ لنكف عن العد كي لا نحسدهم .

ـ ما أروعك وأنت تشتهي الحياة أكثر من اشتهائك لي .

ـ أتحبين هذا؟

ـ أريدك أن تفرح وتفرح وتفرح .

ـ صار عددهم أكثر من خمسين .

ـ أحبك .

الغرفة البيضاء

عشتُ طويلاً مثل تميمة زرقاء على واجهة منزل ، وأفضل أوضاعي الأسرية أن أبدو بديع النظافة وراسخ المتانة مثل أثاث صالة الاستقبال . كانت حنان راضية بالصورة المزيفة التي أظهر بها أمامها . لم أكن موفقا في أغلب الأحيان ، فبالرغم من التزامي بالمظهر العام ، إلا أنني كنت أغالي في أن أكون غير مناسب إلى أجواء عائلة الهدوان . لم تستوعب حنان خروجي المتكرر عن استقامة الطريق ، وعاشت تلقّنني عاداتي وسلوكي حتى تبرهن أنها ليست سيئة الحظ كما يعتقد إخوتها . على الجانب الآخر كانت مناسك توسّع لي الفضاء كي أكون كامل العوالم . تفعل هذا من أجل أن أرجع إلى بيتي وأنا قادر على أن أعيش المزيد من الساعات دون تذمر . حنان تظن نفسها قطعة كيك ساخن وأنا الصحن الجميل ؛ لذلك هي فَرِحَة بقدرتنا على أن نبدو سعداء أمام أسرتها . أعتقد أن الناس يكذبون لأنهم لا يستطيعون أن يكسروا انطباعات الآخرين عنهم . أنا أختلق الكثير من الأحداث كي أُشبع الامتلاك الذي تريده حنان لأفكاري وحياتي معها ، حتى إنني أجعلها

تطمئن كثيرا لوداعتي كزوج لا يترك خلفه الكثير من الفوضى . لم يكن بإمكاني القيام بمحاولات أخرى لزيادة نسبة الانتماء ، فقد خسرنا سريعاً همة أن نكون معاً في عالم واحد . تركتها تعتقد أنني سكير ومعدوم الطموح ولا تأخذني الغيرة إلى أن أكون ثعلبا ومحبا للمستقبل الآمن ؛ لأنها غير مستعدة لأن تتعب من أجل فهمي .

قضيتُ ساعة مع شاكر في مكتبة الأوقاف مستمعا لخطته البحثية بشأن مخطوطته الجديدة المعنونة «موسوعة عاهرات الموصل في القرن العشرين» . كنت قد طلبت من حنان أن تجهز نفسها كي آخذها إلى بيت أهلها ، وأخبرت شقيقها عمار في التاسعة صباحا أنني لا اضمن الأمان لأسرتي . صارحت شاكر بأنني لا أملك الصفاء اللازم للاستماع إلى سخافاته . هذه المدينة تفتقد إلى الكياسة ويُخيّل لي أن أمراض الحروب باتت واضحة على سلوك الجميع . كان شاكر يعطيني الأمل دائما بوجود فرصة ما . هو رجل دميم وتفوح منه رائحة الثوم لكنه يبدو أنه الوحيد الذي لا يملك أي سبب للسخط على الحياة . لم أسمعه يوما يشكو من شيء ، ورغم أنه تجاوز الخمسين ، ولم يتزوج ويعيش مغضوبا عليه في غرفة ملحقة بمرآب في منطقة باب سنجار ، إلا أنه يظهر انتعاشا لا يعكّره كبده الذي نخره العرق . عرض شاكر أن يريني مجموعة نادرة من مخطوطات تعود إلى القرن الثامن الهجري . لم أتحمس للأمر وطلبت منه أن يوافيني في مقهى الدمنهوري بعد ساعة .

وجدت فارس بانتظاري في محل الخياطة . بدا مشتت الذهن وهو يسلمني أوراقا مستنسخة تحتوي إحصائيات بجرائم الخطف التي وقعت هذا العام ، وسألني إن كان بإمكاني إجراء أكثر من حوار مع قائد الشرطة على أن تنشر في صحف بغدادية عدة . رفضت طلبه وأفهمته أن هذا الأمر ضد المهنية التي ألتزم بها .

مال نحوي وهو يقول :

- ليس من مصلحتنا ، أنا وأنت ، أن نخسره . أموره في الوزارة غير جيدة بسبب حادثة سرقة الأسلحة التي جرت في مركز شرطة الزهور .

أوحيت إليه أنني على علم بما جرى :

- لقد سمعت من ضابط في الداخلية أن أمرا بإلقاء القبض سيصدر بحقه .

- الأمر صدر فعلا لكن بحق نائبه فبعد أن عثرت قوة أمريكية على خمسين بندقية ، أي نصف الأسلحة تقريبا ، إثر مداهمة في تلعفر ، وألقت القبض على ثلاثة أشخاص أحدهم ابن عم نائب قائد الشرطة ، اتضحت خيوط الحادث .

- سأنسق مع صحفيين من بغداد من أجل الحوارات أما أنا فأعتذر ، لن تكون الغد طرفا في هذا .

تحققت وأنا في طريق عودتي إلى شارع مكتبة الأوقاف من صحة المعلومات من رائد في الشرطة يعمل في تلعفر على صلة وثيقة بإبراهيم توسان ، وطلبت من مناسك عبر الهاتف أن

تتصل بالميجر ويمبر لتحصل على المزيد من التفاصيل . وقبل أن أكمل كتابة الخبر أبلغتني مناسك أن الأسلحة أمريكية الصنع وهي دفعة أولى مخصصة لفوج حماية قائد الشرطة .

كان شاكر يهم بمغادرة مقهى الدمنهوري حين وصلت . سألته إن كانت مكتبة الأوقاف تحتوي على مخطوطات بالعبرية أو السريانية تخص مزار النبي ناحوم في ألقوش :

ـ إنها بحوزة الأمريكان .

ـ ما علاقة الأمريكان بهذا؟

انتفخ وجهه وهو يحكي لي ما حدث :

ـ بعد أشهر من احتلال الموصل خصص لنا الجيش الأمريكي منحة لتحديث المكتبة وترميم قاعة المخطوطات ، وقاموا بنقل ألف مخطوطة إلى جهة مجهولة وتعهدوا بإعادتها حال انتهاء أعمال الترميم ، وبعدها بأسابيع جاءت لجنة قيل لنا إنها من جامعة أمريكية مرموقة ، وأبلغونا أن العديد من المخطوطات متضررة وأنهم سيقومون بإجراء الصيانة عليها . وبعد اكتمال العمل في المبنى أعادوا نصف المخطوطات والنصف الآخر لم يعد إلى الآن .

ـ التي لم تعد هي الأثمن والأهم أليس كذلك؟

ـ نعم وأغلبها بالسريانية والعبرية .

ـ هل طالبتم بها؟

ـ فعلنا ذلك أكثر من مرة . في البداية قالوا إنها قيد الصيانة وحاولنا إثارة الأمر في بغداد إلا أن لا أحد تحرك . آخر

محاولة قمنا بها مع الأمريكان كانت قبل عام ولم نتلق أي رد منهم .

ـ هل بإمكانك الحصول على أدلة تثبت أن المخطوطات بحوزة الأمريكان؟

طلب شاكر فنجان قهوة وأخرج من جيبه نسخة من جريدة الحدباء وفتحها من المنتصف وسألني :

ـ هل تستطيع أن توفر لي قنينة عرق بعشيقي على حسابك كل يوم إلى أن أموت؟

ـ كن أكثر جدية . . سأستعيد المخطوطات .

ـ وأنا سأفقد عملي .

ـ ألن تساعدني؟

ـ أيها الأحمق وفّر لي العرق فقط .

***

أوصلت حنان إلى بيت أهلها في حي الضباط . بقيت واقفا عند الباب ولم أستجب لدعوة عمار الذي راقبني ببرود وأنا أودع ريم وكريم وأجيب على أسئلتهما الكثيرة بشأن سفري إلى سوريا ، فقد تفاجأت ، ونحن في الطريق ، أن حنان أبلغتهما بذلك لتبرر غيبة طويلة .

طلب عمار منهما ألا يثقلا علي ، وقال لي إنه يتوقع مني أن أعود سريعا لاسترداد ريم وكرم . عمار في الستين من العمر وملامحه اليابسة توحي أنه عاش مكشوفا للشمس طوال عمره ، وأنه اكتسب قسوة خلقية من عمل عضلي . لم تكن

علاقتي به وردية فهو لم يظهر طوال فترة زواجي أي موقف يدل على حسن النية ، وكان يتصرف كمفتش حكومي ويدقق في أشياء تمزق الأعصاب ، ويشعرني أنه يتلذذ بإهانتي والتدخل بشؤوني .

قال لي بعد أن بقينا وحدنا :

ـ أنتظر منك أن تعالج الموقف بأسرع وقت .

ـ الأمريكان لا يقبلون أن أترك بيتي . لم يعد بإمكاني فعل شي . سأنتظر إلى أن يرحلوا .

كان واضحا ، من هزة ملامحه ، أنه كبح جماح جملة قاسية .

ـ كنت دائما أقول إن البنات نقطة ضعف عائلتنا .

ـ ربما لهذا السبب ريم تكره أخوالها .

ابتسم وهو يقول :

ـ ليس بالقدر الذي تظن يا جلال . سيختلف الأمر ما إن تعيش ريم معنا .

بعدها بساعة كنت في بيت سعدية . كانت مناسك تحب أن يكون توقيت وجودي متزامنا مع انتشاءات الخالة المفعمة بالاخضرار . تفرح بعمق حين تراني أضحك بطبيعة برية خالصة لحكايات سعدية ، التي عادة ما تفتقر إلى الأدب ، وتسألني وهي منهمكة بإسعادي إن كانت قد نجحت في أن تكون نسخة من خالتها قبل ثلاثين سنة . كان هذا التقمص ينبهني إلى وجود أسى دفين ؛ فأنا أشك في أن تكون النهاية

موازية لثقة مناسك بي كرجل قادر على تحقيق كل الأحلام .
هذا الخوف هو ما يكبح نزواتي ويجعلني قديسا يهوى الإلحاد .
كانت سعدية في الثالثة والستين ؛ ولكنها محتفظة ببشرة يافعة ومتحمسة بشدة لأن تستمر بجمع المال من أجل ألا يبقى في نفسها طمع بشيء . طلقت أربع مرات . طويلة القامة ونموذجية الوزن وحريصة على أن تكون مواكبة لمباهج التقدم البشري . تتعامل بحنكة مع التكنولوجيا ، رغم أنها لم تكمل التعليم الإعدادي . تخزن تعاملاتها التجارية في الكومبيوتر وتسعى لاقتناء أحدث ما تطرحه شركة نوكيا . وكنت في المقابل أزداد تكبلا بحدود أن أكون متفهما ودائم الانبهار ؛ لذلك تحب سعدية أن تنعتني بالراقي ولا تتحرج من أن تستعرض أمامي أنوثتها الأثرية .

بيت سعدية في محلة الشيخ أبو العلا عبارة عن قلعتين متجاورتين يربطهما سلم على شكل رقم سبعة ، وهو ، كما تتفاخر الخالة ، الثلث الأخير من بيت أكله الميراث والزمن . وقد طلبت مني أن أستأجر البناء الغربي المكون من غرفة علوية واسعة ، لأن هذا الأمر لا يجعلها متعكرة الضمير ، ومدانة بالقوادة ، وهو عرض أراحني أيضا ، فكثيرا ما آتي في غياب مناسك لأخذ قيلولة طارئة ، أو الانفراد بضجري ، وشرب كأس ويسكي لمعالجة خوفي من الموت .

ما يبهرني في مناسك وسعدية احتفاؤهما القيصري بحضوري ، فحتى لو دخلت بيت الخالة ثلاث مرات في اليوم

فأنني سأقابل الارتباك نفسه والعجلة في أن أكون محاطا بكل أنواع الكرم المعبر عن سعادتهما المُتهيجة . دائما ما أتوسل مناسك ألا تحرجني في مبالغات الترحيب ؛ فأجدها تحدق في الفضاء علامة الدهشة ، وكأنني أطلب شيئا مشينا . مناسك راسخة النقاء وفطرية التكوين مثل سحابة سهوب رقيقة وصافية البياض . تكومان أمامي أطباق الفاكهة والكيك والكليجة والبقلاوة وخلطات المكسرات ، ويلحقن ذلك بفوضى لونية من عصائر ومياه غازية وشاي وقهوة بينما أنا أحلف بكل الأنبياء أنني ثقلت وتوسعت ومؤهل للانفجار . كانت مناسك تعرف كيف تكسب الوقت بتلك المراسيم ؛ فسرعان ما تختفي وتتركني بعهدة خالتها التي تزيد علي بمشروبات عشبية أو أن تعلمني أسرار الموبايلات والأرقام الكاشفة لعقل الجهاز ؛ وهي في كل مرة تردد أن التكنولوجيا لها روح ، وأنها في طريقها إلى التمرد . في هذه الأثناء تكون مناسك بانتظاري في الأعلى وقد تحولت إلى كائن أسطوري منزوع الزمان والمكان ومفعّل بكل عنفوان الرغبة . من النادر أن أعثر عليها وسط هذا كله . في الغالب تكون مشدودة لأن تتجسم هيكلا أنثويا لكل أخيلتي . أراها ملتزمة بالتطابق معي إلى درجة أنني أنتبه في غمرة الانتشاء الكامل أنني لا أعرف إن كنت قد أعطيتها ما ترغب . كانت لا تجيب أبدا عن أسئلة المتعة تلك ، وتكون متكتمة إلى حد مفزع . لم أوجهها في شيء . كانت تبدو لي متنبّهة وفوق هذا أجدها رائقة ولا أملك من تعمقي البصري فيها أي دليل

على أنها تخطط أو ترسم أو تسير باتجاه هدف منتصر . عرفت من تلقاء نفسها أنني أريدها غير مباحة وصلبة وغير مبتذلة . تتلبسها طبيعة ناعمة . نسيج مرهف من حس يتفنن باللمسة . كانت تفاجئني بقوانين تفرضها علي وتقول لي هكذا أنت . كنتُ أجدُني سافلا إلى درجة لا تحتمل ، ولكنها ما تلبث أن تواسيني فهي تدرك أنني أجري مقارنات مخيبة . لا أعرف متى تمكنتُ من معرفتي . أجدها مصقولة وفي منتهى الانبهار . لقد قادتني إلى هذا العالم دون معونة مني . هي التي خططت وزجتني في وضع أن أكون الرجل الذي تحب ، وأن تحافظ على أحادية اعتقادها بإيمان لا توخزه لحظة شك . كانت مناسك تعي أنني أعاني عدم الوضوح ، وكثيرا ما لا يعجبني أن أبدو انتهازيا مع ما تُبديه من تضحية . تعرف أنني أريدها لامعة المفاصل في الركبتين والرسغين . صافية البشرة ومسكونة بالتعبد الصنمي . كانت تفعل كل ما أحب كي أتمكن من تحقيق ما أحب .

وجدت غرفتنا البيضاء المستطيلة دافئة ، ومن الزوايا تنسكب إضاءة ناعسة . لقد عملت مناسك ، مدة سنة ، مع نجار تركماني لخلق سرير من الخشب الأبيض المنقوش ، فخم وواسع ، بأعمدة ومظلة عليها من الداخل رسم مقطعي يمثل آدم وحواء لمايكل أنجلو ، وصممت جدارا خلف السرير طلي بتكتلات من اللون الأحمر . وفي الجهة المقابلة أريكة ومنضدة واطئة . وجدتها ترتدي قميصي الأحمر على عري كامل ،

مستلقية على بطنها وسط الغرفة تطالع صحفاً أمريكية قديمة . كانت قد جهزت لي الويسكي والثلج وصحن مكسرات . بدت لي بساقيها المصقولتين ومؤخرتها الصغيرة اللامعة وسط السجادة الحمراء مثل وردة جوري .

قلت لها بعد كأسي الأول :

ـ رتبي لنا موعدا مع الميجر ويمبر .

قالت :

ـ أرى أن نؤجل الأمر إلى حين أن تعتاد على فراغ بيتك .

ـ لا تقلقي ، أنا بخير .

ـ جميع الذين وجهنا إليهم الدعوة لحفل افتتاح قصر بني وافقوا على الحضور ، وأستاذ اللغة الألمانية وعدني بمفاتحة السفير بشأن كمال .

وجدتها تنهض كأنها سمكة تطفو . توقفت عند حافة المنضدة وقالت :

ـ الميجر ويمبر لن يعيد إليك بيتك يا جلال .

أمسكتها من يدها ، وأجلستها على يميني :

ـ اعلم هذا ، ولكنه قد يكون مفيدا في علاج ابنة طارق بائع الجرائد ، وفي إعادة المخطوطات إلى مكتبة الأوقاف ، وفي تسهيل مهمات المنظمات الإنسانية لعلاج أطفال الثلاسيميا .

انكمشت مثل تلميذة :

ـ أنت حزين؟

ـ لا تهتمي يا شجرة الفستق .

فتحت مناسك أزرار القميص بأصابع مسترخية وكأنها تمشط شعر طفلة . تنفس عريها ، ولمعت بين ثدييها قبضة يد الملكة شمشو وهي تمسك بجوهرة عرش آشور بانيبال .

صعدت على الأريكة مستندة على ركبتيها واقتربت مني . بللت إصبعها في كأسي ورسمت خطوطا على صدرها وهي غائبة الحواس ومنصتة لموسيقى روحها . تفاعل عطر اسكادا مع أنفاسها المترددة بهمهمة خفيفة . التقطت مكعب ثلج ، وراحت تداعب به حلمتيها النافرتين كحبتي بندق ، أغمضت عينيها بانتشاء وتموجت بلمعة فضية . دست مكعب الثلج في فمها وهي تأخذ كأسي من يدي . تصاعدت متأججة مثل نار . ملأت فمها وانحنت مفلتة قطرات الويسكي بفمي . رفعتها وأجلستها فوقي . دفعت لسانها بين شفتي بينما أصابعي تتلمس مؤخرتها وظهرها .

همست ذائبة :

ـ أنا ملكة . . ملكة حقيقية .

وثائق الدومنيكوس

اتفقنا على عزل الكتب الجديدة وجعلها قريبة من الواجهة مع وضع عارضة معدنية عند المدخل . كانت المكتبة واسعة المساحة ، تنتصب في وسطها أربعة أعمدة رخامية مقوسة تثير الكأبة ، بينما الكتب بلونها الأصفر المغبر تبدو مثل بلاطات من الآجر . لم يكن الحاج جبار واثقاً من النتيجة وقد هدده إبراهيم باستدعاء شاكر الوسخ إن بقي على تشاؤمه .

ـ أنا وسخ يا كلاب الشوارع؟

وجدنا شاكر يقف بالباب حاجبا ضياء الشمس ، في معطف أسود يصل إلى ركبتيه ؛ وقد بدا رأسه بعينيه الغائرتين وبخديه المخسوفين كجمجمة مجلدة . حاول الحاج جبار تدارك الموقف وهرع مرحبا به إلا أن نوبة سعال داهمته .

ـ مهلا يا أبناء الحرام . . سأثبت لكم قريبا أن جداتكم عاهرات . أنت مستثنى يا حاج جبار فجدتك شريفة ، ولكنني متأكد أن جدك ، رحمه الرب ، نام مع جدة هذا الأحمر إبراهيم توسان .

سلمني شاكر أوراقاً مطوية ونبهني إلى أنه بدأ بالحساب ،

وقبل أن يغادر استجمع أساه وقال :

ـ ابنة طارق بائع الجرائد توفيت .

***

لم يهدأ إبراهيم طوال الطريق إلى بيت المكاوي ، وراح يطلق التعليقات الساخرة بصوت عال متلقيا مشاركات المارة ، وأصحاب المتاجر . تكلمت مع حنان للاطمئنان على الأولاد والترتيب لزيارة أقوم بها إلى بيت أهلها ، شرط أن تكون بغياب إخوتها .

توقفنا لشرب الشاي ، فعرض علي إبراهيم أن أسمع نصيحته وألحق بأختي في السويد ، وأترك برميل القمامة الذي نحن فيه ، وقال إنه سيصفي أعماله ويهاجر إلى حلب .

طلب إبراهيم شاياً من دون سكر وقال :

ـ لقد سئمت سخافات الدومنيكوس وهذا الخرف السيد صافي . أنتم تحرثون الغيوم . أية ثقافة هذه التي تريد حقنها في عقول هذا الشعب المغفل . هل صدقت نفسك؟ هل تظن أنك أعدت افتتاح سينما الأندلس؟ وأن كتب الحاج جبار ستنفد غدا؟

قلت ببرود :

ـ لست وحدي . من المؤكد أن هناك من يفعل أشياءً أخرى أكثر فائدة من عرض شيت فيلم مزيف ، أو جلب كتب جديدة تتحدث عن الحياة الجنسية . في مناطق كثيرة هناك أشياء تحدث .

ـ نعم يا صديقي هناك أشياء كثيرة تحدث مثل فتح بيوت ثقافية بينما هي في الحقيقة أوكار لحزب العمال التركي ، أو تأسيس منظمات تدافع عن حقوق المرأة ، بينما هي في الحقيقة مكاتب مخابرات .

نبهت إبراهيم إلى أنني لا أتقبل أي نوع من التراجع ، ولا أستطيع فهم انهياراته . وقلت له إنني غير مستعد لمناقشة توجهات الدومنيكوس لأنني أؤمن بنفسي أولا ، وما أنا فيه لا يعود إلى الدومنيكوس وإنما إلى تطلعاتي .

جرني إبراهيم للسير في زقاق هادئ وعاد ليقول :

ـ ألم تسأل نفسك لماذا مجلس الأمناء مهتم بالميجر ويمبر؟

ـ أنا أثق بالسيد صافي وأرى أن الدومنيكوس تقوم بدور مهم .

ـ هذا في الماضي السعيد يا صديقي ، قبل قرن من الزمان ، أما الآن فكلهم لصوص وأصحاب مصالح .

ـ حتى إن اكتشفت أن الدومنيكوس فكرة ماتت ، قبل قرن ، فإن هذا لن يغير قناعتي .

ـ إنهم يهربون يا صديقي ، وأتوقع أن يفعل هذا السيد صافي أيضا في أية لحظة . أمريكا تسفّرهم مع أموالهم . في القريب العاجل ستبقى وحدك هنا تطارد أحلامك .

أمسكته من ساعده وأوقفته :

ـ نعم يا إبراهيم سأبقى أطارد أحلامي . إذا كنت لا تؤمن

بما تفعل فعد إلى دكانك .

طفح وجهه بالدم وهو ينظر في عيني :

ـ ونحن نسير من الدواسة إلى هنا سمعتُ أصوات ثلاثة انفجارات . . أنت لا تسمعها يا جلال كما أسمعها أنا .

***

قادنا خادم السيد صافي إلى الباحة الثانية ، فاتحاً لنا غرفة القراءة ومعتذرا عن برودتها . ارتحت قليلا من شكوكي ما إن رأيت الغرفة على حالها . لا يمكن أن يكون كل هذا محض وهم ومصالح شخصية ، وخطر لي ألا أستفز إبراهيم بمثاليتي ، وألا أثقل عليه ، وأن أهتم بشؤونه ، وراهنت على خروجه من هنا هادئاً ووديعاً مثل جرو .

حيّانا السيد صافي بود وبقي ماسكاً بيد إبراهيم وكأنه يراضيه . كان يرتدي الجينز ويبدو أكثر توقدا وحيوية من اللقاء الأخير . لفظ كلمة «حسناً» بالفرنسية وأخذ نفساً عميقاً وقال :

ـ لقد استدعيتكما لأمر مهم . سنحتسي الشاي في غرفة أخرى . أنا أحتاج إلى صفائكما الذهني . مهم أن تفكرا معي وتقولا رأيكما بما ستريان .

وجهت كلامي إلى إبراهيم :

ـ هل سمعت يا توسان . . عليك أن تفكر .

تساءل السيد صافي ضاحكاً :

ـ هل عاد إلى فكرة ترك الموصل والسفر إلى حلب؟ لا

أريدك أن تصدق كل ما يقوله .

قال إبراهيم بارتباك :

ـ أنا أعبر عن رأيي . .

قاطعه السيد صافي ضاحكاً وموجهاً كلامه إلي :

ـ وإن سمعته يشتُمني فاعلم أنه يمر بأزمة عاطفية .

أخذنا السيد صافي إلى باب في زاوية الباحة اليمنى . كان المكان عبارة عن سرداب بعمقين . نزلنا إلى الأول بسلم رخامي من خمس درجات ؛ وقد تم بناء جدار خشبي على حدود السلم الثاني فتكونت بذلك قاعة تطلّ بشبّاك بحجم متر مربع على عمق السرداب . كانت توجد إلى اليمين ، في مواجهة فتحة السلم النازل ، أريكة سوداء بزخرفة صدفية ، إلا أننا جلسنا إلى منضدة خشبية مربعة في الركن . أحضر الخادم صينية الشاي . أخرج السيد صافي ورقة بنفسجية صغيرة نظر فيها وقال :

ـ الدومنيكوس تمتلك كنزا عظيما هو في الحقيقة من أكبر أسرارها وأثمنها . تعلمان أننا نعتمد على المخاطبات المكتوبة ، وكل واحد منكما كتب العشرات من التقارير طوال فترة العمل . في حوزتنا الآن قرابة مليون وثيقة تؤرخ تاريخ الموصل على مدى قرنين .

قال إبراهيم :

ـ كنت دائما أتساءل عن مصير تقاريري ويصيبني الرعب بشأنها .

رد السيد صافي :

ـ لا تحبس مخاوفك في قلبك . أنا بحاجة إلى كل ما تشعران به حتى وإن جاء متناقضاً . عائلتي تحتفظ بكل كلمة كتبت منذ الاجتماع التأسيسي الأول .

قلت :

ـ معنى هذا أننا نمتلك ملايين الأسرار .

ـ بل الحقائق . توجد لدينا قرابة نصف مليون صفحة تحكي تفاصيل يومية دقيقة تشكل بمجملها التاريخ الحقيقي ليس للموصل فقط وإنما لعموم العراق . ما لا تعرفانه هو أن الدومنيكوس لها وجود في البصرة وبغداد .

سألته :

ـ ما نوع هذه الحقائق؟

ـ هي صورتنا الحقيقة . إنها تقول لنا بدقة من نحن .

أمسك السيد صافي بيدي وتابع :

ـ لقد قررت نشر هذه الوثائق .

تساءل إبراهيم :

ـ كيف يمكن فعل هذا والمحافظة في الوقت نفسه على سريتنا . إنه أمر قد يعرضنا إلى الزوال أو ربما لن تكون لهذه الوثائق أهمية ما دامت مكتوبة بأقلام مجهولة . علينا حينذاك أن نعلن عن وجودنا كي نعطي مصداقية للوثائق .

قال السيد صافي :

ـ لهذا أنا أريد رأيكما .

سألته :

ـ رأينا في ماذا ولماذا نحن؟

نهض متوجهاً إلى النافذة :

ـ يمكننا نشر الوثائق دون أن نعلن عن أنفسنا . سيكون بالإمكان الوثوق بصحتها ونحن نريدها أن تكون إيقاظية . يمكن في النهاية خلق حكاية مقنعة ، لكن ما يرتبط بنشر الوثائق أعمق من المجازفة نفسها . اعتقد أنني ارتكبت أخطاءً يا سادة .

سارع إبراهيم إلى القول :

ـ أفهم من كلامك أن خطة نشر الوثائق هي فكرتك أنت ، ونحن هنا لأنك ترانا نؤيد مساعيك . أنت على خلاف عميق مع مجلس الأمناء ، والسبب أن الكثيرين تخلوا عن المنظمة وفروا بأموالهم ، وأنت تشك بأن الميجر ويمبر وراء الكثير من ظواهر الهجرة العقلية التي حصلت ، بل أنا أظن أيضاً أن أمر المنظمة قد انكشف وأنها لم تعد سرية . لن أقول إنك قائد غير جيد ولكن أقول إن الظرف أصعب بكثير من أي وقت آخر ، والقضية الأكبر يا سيدي أن القناعات تغيرت . قانون العوائل لم يعد يحكمنا . لا أحد يتذكر فروسية القرن الماضي .

شد السيد صافي قامته وقال :

ـ كلامك صحيح سيد إبراهيم ، لهذا أرى أن نشر الوثائق في هذا التوقيت سيكون مفيدا . لم يعد الجوع هو الهدف . لقد عشنا عقوداً نوفر الطعام . مجلس الأمناء لا يريد أن يخرج عن المسار . ما معنى أن نملأ كيس المعدة بخيرات الله؟ أنا أريد

القول إننا كنا دائما نفكر ونعمل بإرادة قوية ، وإننا الآن بحاجة إلى استعادة الثقة بأنفسنا من أجل مهمة جديدة .

تساءل إبراهيم :

ـ ما فائدة هذا؟ . نحن كنا نفكر ونعمل وهذه هي النتيجة التي توصلنا إليها ، انفجارات وقتل وخطف واقتصاد مدمر وبلد خرب وشعب مطعون الأمل ومقتول المستقبل . نحن ندفع الأموال من أجل عمل الخير لهذا عاشت الدومنيكوس طويلاً . نحن منظمة خيرية تعمل في السر كي لا يتلوث الإحسان . الجميع يؤمنون أن الله معنا لأننا نطعم الفقير ونساعد المسكين ولهذا يدفعون أموالهم .

ـ ولكن الله لا يقف فقط مع المعدة الفارغة . هو مع العقل أيضاً .

ـ ولكن يوجد الآن من يرى أن السينما والمسرح والغناء حرام . سنتحول سريعاً من محسنين إلى كفار .

عاد السيد صافي إلى إخراج الورقة البنفسجية . نظر فيها وقال :

ـ شكرا لأنك ذكّرتني يا سيد إبراهيم . كنت أريد إبلاغك أننا تمكنا من إعادة تدريس الفنية والموسيقى في أربعين مدرسة وهذا بفضل مجهودك . توجد هنا في هذه الورقة إحصائية بالمدارس ومراحلها . هل كنت تعرف يا سيد جلال أن صديقك إبراهيم أعاد السلم الموسيقي إلى مكانه الصحيح ، وأنه ساعد في تأسيس فرقة موسيقية من أطفال في السادس الابتدائي ،

ستقدم عرضها الأول في حفل افتتاح قصر بني .
ضربت إبراهيم في كتفه :
ـ يا كافر ، كيف أخفيت عني هذا؟ ولماذا كنت تحطم معنوياتي؟
ـ هذه أسرار يا مواطن ، وأنت لست عضوا أصيلا مثلي ، ويوم تفقد عزيمتك سنقول لك مع السلامة .
سألت السيد صافي :
ـ ما هو الشيء الذي تريدنا أن نراه؟
ـ تفضل إلى النافذة سيد جلال .
كان في عمق السرداب رجال ونساء يجلسون إلى أجهزة كومبيوتر يقومون بالتنضيد ، وأشخاص يتنقلون يوزعون الأوراق أو يتسلمونها . وجدت إبراهيم ينهض ويأتي ليقف بجواري .
ـ لا ضير من إضافة القليل من الجنون على الخراب . . سيكون هذا ممتعاً .
التفت إليه السيد صافي وسأله مبتسماً :
ـ وماذا عن الهجرة إلى حلب؟
ـ لن أجعل الأمريكان يتشمتون بك .
لمحت سيدة في الأسفل تبدو عليها الوجاهة ، ولفت نظري أنها تدير العمل .
قال السيد صافي والسعادة بادية عليه :
ـ اسمحا لي أن أصطحبكما إلى الأسفل .
هبطنا السلم الحجري الضيق يتقدمنا السيد صافي الذي

أوعز للجميع بالبقاء إلى مكاتبهم .

ـ يمكنكما الاطلاع على التقارير ومتابعة العمل عن قرب .

عادت السيدة إلى الظهور . وجدتها تتقدم نحونا بخطوات واثقة . التفت السيد صافي إلي وقال :

ـ زوجتي سندس .

بائعة الزهور العمياء

أبلغتني ماجدة أن هبة ستكون في الغد ببرلين ، فأوصيتها أن تضع في بالها احتمال أن يكون خالها كمال قد غيّر عنوان سكنه ، وفي هذه الحالة عليها أن تسأل جيرانه وتبحث في منطقة سكناه عن عراقيين أو عرب ، فربما تحصل على معلومات عن مكانه الجديد . وسألتها إن كانت تعرف سيدة مقربة من كمال وزوجته تدعى سندس ، فضحكت ماجدة مستغربة حالة الضياع التي أنا عليها ، وقالت إن سندس هي أخت توفيق الحداد الكبيرة .

حين خرجنا من بيت المكاوي كشفت لإبراهيم عن قلقي بشأن نتائج مشروع نشر الوثائق ، وفي نيتي أن أستدرجه إلى البوح بما يعرف عن زوجة السيد صافي ، فوجدته يسألني إن كنت أعرف السيدة سندس ، ولمّح إلى أن سلوكها معي كان استثنائيا ومميزا ، وأن السيد صافي كان يراقب توددها بارتياح سعيد ، فقلت له إنها سيدة الدومنيكوس الأولى ، ولكن ، مهما يكن السبب ، فأنا أجد سلوكها في الحدود الطبيعية للرقي ، فهي تعاملت بلطف مع ضيوف زوجها . ضحك إبراهيم قائلا :

ـ تعاملت بلطف معك فقط ، هي خصتني بإيماءة متكلفة

من رأسها ، وأخذتك من يدك ، ووقفتما بعيدا عنا واندمجتما بحديث بدا لي عائليا وفيه تشويق .

ـ على مهلك يا رجل ، كانت تحدثني عن الوثائق .

ـ فيها الخير .

قفزتُ إلى زمن آخر سائلا إبراهيم عن معنى الحوار الذي دار بيننا قبل أن نصل إلى بيت المكاوي ، فقال إنه يعنيه وليس اختبارا لمعرفة إن كنت مؤهلا لسر كبير كهذا .

ما جرى لي مع السيدة سندس كان غامضا ، فقد اعتذرت ، مرة أخرى ، عن تقصيرها في التعرف إلى حنان ، وحدثتني عن رحلتها إلى أربيل وعملها على ترجمة الكتاب . كانت تتكلم وكأنني أعرف جيدا من هي ، وكانت تعتذر عن أشياء لم أفهم خلفياتها ، مثل اعتذارها عن المدة القصيرة التي قضتها في عمّان وعن عدم قدرتها على التواصل مع نسرين في أزمتها . كانت غير متوجسة وعريضة الارتياح وكأنها عاشت معي صداقة مديدة . لم أشعر بالارتياب بل بألفة عمقتها أناقتها الرفيعة ، وخلو تعابيرها من الزيف .

***

في الواحدة ظهرا أخرجنا شاكر ، أنا ومناسك ، من مقهى الانترنت قائلا إن عنبر عربانة يصارع أشباح خالاته وعماته العاهرات . اعتدت على جنونهم جميعا ، فأنا الوحيد الذي يفهم لغاتهم ويعالجهم في أوقات انهياراتهم . وجدنا عنبر يحتمي بالبوابة السلايد ملوحا بقنينة مشروب غازي مكسورة

بينما العديد من الصبية يقذفونه بالأحجار ويناورون في غارات يبصقون فيها عليه ، وسط تواطؤ باعة السجائر وسخرية عمال المطاعم . استخدم شاكر معطفه المأتمي مقلدا حركات الخفاش في طرد الصبية ، بينما عنبر الغارق في عرق الخوف يفتح البوابة لنا . احتضنته وطلبت منه أن يهدأ . كلفت مناسك بأن تحد من انفعالات شاكر وأخذت عنبر إلى الداخل . كانت تفوح منه رائحة بول وقد بدا مشعث الشعر وبلحية كثة .

ـ الإرهابيون يريدون تفجير السينما . أنا كتبت لهم في الأعلى هل رأيت اللافتة؟ كتبت ترقبوا مفاجأة العيد السعيد . أنا جائع يا جلال .

جاء شاكر لاهثا :

ـ هل هو بخير؟

أعطيته مالاً ليجلب طعاما وفاكهة وأخذت عنبر إلى الحمام . نزعت عنه ملابسه وفككت رشاش الدوش ثم فتحت الماء عليه ورحت أحممه . قرفص مثل طفل واستسلم ليدي . طلبت منه أن يبقى في مكانه بلا حراك تحت الماء الحار ، وصعدت إلى غرفة آلة العرض التي يتخذها مكان مبيت وجلبت له ملابس نظيفة .

وجدت شال مناسك على مسند الكرسي الأول من جهة المدخل بينما هي تجلس في منتصف الصالة بأقصى اليسار . أخبرتها أن شاكر معه في الأعلى . التفتت نحوي وقالت بحزن عميق :

ـ نحن فقط رواد هذا الفراغ . . لا أحب أن يتأذى أحد بسبب أحلامك .

أمسكت بيدها :

ـ هذا ليس بفراغ ، إنه انتظار يا شجرة الفستق وعنبر عربانة نزل من بطن أمه وهو على هذا الجنون . إنني أبذل جهدا من أجل أن يتمتع بلحظات جميلة .

ـ كان عليك أن تهبه فيلما حقيقيا .

تأخذني بعيدا هذه التنبيهات العارضة . حين ينهار أحدهم أشعر أنني لم أكن مفيدا كما يجب ، أو أنني لم أفعل سوى السيطرة عليه ووضعه في علبة محفوظا بالتفاني الكامل لقلب محب .

صفق شاكر لينبهنا إلى وجوده . أشرت إليه أن يقترب . قال :

ـ هو بخير الآن

طلبت منه أن يبقى معه هذه الليلة . أومأ برأسه موافقا . انطفأت الأضواء وتوهجت الشاشة . قال شاكر بينما مناسك تضحك بفرح :

ـ ها قد عاد إلى بغوليته المعهودة .

افتتح العرض بمشهد من فيلم أضواء المدينة يظهر فيه شارلي شابلن الصعلوك وهو يلتقي بائعة الزهور العمياء . انسحب شاكر ليجلس في الأمام ، فغطست مناسك في مقعدها شابكة ذراعها بذراعي .

***

وجدت إبراهيم ينتظرني في مقهى الدمنهوري والقلق بادٍ

على وجهه . جاءني النادل بالقهوة :

ـ لقد خطفوا صاحبك الخياط .

ـ فارس؟

ـ أعتقد أن صفقة تحريره قد تمت . إخوته سيدفعون ربع مليون دولار فدية . ربما يكون حسن شقيق زوجتك من ضمن الذين ستطولهم حملة الخطف .

ـ حسن علاقاته جيدة مع الجماعات المسلحة .

ضحك إبراهيم وقال :

ـ حتى قائد الشرطة علاقته معهم جيدة . هي صفقات داخلية لكسب المزيد من الأموال . ينقلبون عليهم ويتخذون لهم أسماء جديدة . يوميا هناك تنظيم مسلح جديد يظهر . إنهم يلعبون دور الخاطفين والمنقذين في الوقت نفسه ، ويسلبونهم الأموال من الجهتين لذلك يبقون على حياتهم .

طلب إبراهيم من النادل إحضار دومينو وأربعة سندويتشات قوزي . قال بعدها نكتة سخيفة وكان علي أن أضحك بصوت عال ، ثم اعترضت ، بضجة ، على أحجار الدومينو وأمرت باستبدالها .

سألني :

ـ سمعنا أنك اتصلت بفضائيات وإذاعات وصحف من أجل افتتاح قصر بني . هل هذا صحيح؟

ـ نعم واتفقنا أن يتم تسجيل الافتتاح وبثه ، وحملة الإعلانات ستبدأ غدا .

ـ هناك خبر أوصاني السيد صافي أن أبلغك إياه . سيتكفل بفتح مكتبتين في شارع الدواسة . يبدو أن السيدة الأولى راضية عنك كل الرضا .

ـ هذا لا يعجبك طبعاً .

ـ سنلفت الانتباه . الظهور السريع ليس في صالحنا . يريد السيد صافي أن يعيد نشاطنا السابق في الجامعة . لقد رفضوا إقامة معرض رسم لأن اللوحات فاضحة . وأنت والسيد صافي والسيدة الأولى تنتقون الأماكن الخطأ . لماذا لا تختارون كلية الطب فهي أكثر انفتاحاً . على الأقل ستبدو اللوحات ثمرة طيبة لدرس التشريح .

ـ لا علاقة لي بكل هذا . أنا اختصاصي مكتبات وسينمات وعرق بعشيقة .

ـ سيتهموننا أننا نعمل بتمويل أمريكي أو بدعم من حكومات جزر العراة . نحن بأفعالنا هذه ندس إصبعنا في مؤخرة الشيطان .

سألته :

ـ هل تذكر مشهد الصعلوك وهو يمنح بائعة الزهور العمياء القطعة النقدية الوحيدة لديه .

ـ أين هذا؟

ـ في أضواء المدينة .

ـ سلامة عقلك . . أنت في مدينة بلا أضواء .

***

استوقفتني سعدية قائلة إن مناسك حزينة لأمر يخصني . أبديت إعجابي بشعرها الأحمر وقلت لها إنها تذكرني بكيث وينسلت . كانت مناسك تراني محظوظا بها وهذا ما أوافقها عليه دائما إلى حد أنني أتوقع كلما طرقت بابها أن تقول لي عذرا أنا لا أسمح لك . كنت لا أترك فرصة من تلك الأوقات الواهية التي أشعر فيها أنني أخذل نفسي إلا وأخبرتها بأنها أكثر توقاً مني إلى الحرية . كنت لا أقبل ذلك الانكسار الفطري العميق في أنوثتها . هي تسخر من خلطي بين النظرية والحقيقة المرة كما تسميها . القضية كما تعتقد مناسك تتعلق بنوع الأجهزة . ثمة رهافة حريرية في قلب الأنثى . وكنت أقول لها إن كلامها يوصلنا إلى النتيجة نفسها ، بينما أنا أحبها آمرة وناهية كديكتاتورة . كنت بين وقت وآخر أصدم باكتشافات يدفعها الضمير في طريقي . حالة من العودة إلى الرشد . طوال ذلك الزمن الجميل وأنا أخاف من السلم الصاعد إلى الغرفة البيضاء . في الغالب لا أكون واثقاً من شيء ، بينما المهمة الوجدانية تتطلب مني أن أكون واعياً بما أريد وقادراً على أخذه . كانت تقرأ رغباتي وتحقق ما يمكن أن يكون مشابهاً للحظة العوز النافرة مني في لقاءات العمل الصباحية . هذه هي عظمتها . ألا تجعلني أدافع عن نفسي . من النادر أن نكون على وفاق مع الزمن ففي كل الأحوال لن أبقى عندها سوى ساعات . لم تدعني أفكر أبداً في آثار هذا التوقف . لم تترك لي فرصة أن أتخيل ماذا يحدث فوق وأنا أغلق الباب خلفي وأعود إلى بيتي

والى فراشي الحقيقي . هل كانت تقاوم حزنها أم هي متأسفة لكوني الرجل الوحيد في المدينة الذي يتطابق حلمها معه . لم أكن أجدها تختلف في تضحيتها المسرفة عن عنبر وشاكر وحتى إبراهيم الذي أراه دائما مثل دولاب حجري يطحن نفسه .

وجدتها في بلوزة صوفية بنفسجية تغطي حوضها . جهزت لي كأس الويسكي وسألتني إن كنت أحب شيئا محددا على العشاء . تحركت كثيراً أمامي وتفقدت كأسي أكثر من مرة :

ـ موعدنا مع الميجر ويمبر سيكون غداً في منتصف النهار في القصر الرئاسي .

سألتها :

ـ وهل هذا يجعلك قلقة إلى هذه الدرجة؟

ـ أخشى أن يراك أحدهم وأنت تدخل إلى هناك . حاولت بتوسل أن أغير الموعد وأجعله مساءً إلا أن هذا لم ينجح .

واجهتها :

ـ أنت لا تلبسين قلادة الملكة .

وقفت قبالتي واضعة يديها خلف ظهرها :

ـ كمال لدى الأمريكان في بغداد . هذا ما أخبرني به أستاذ اللغة الألمانية نقلا عن صديقه السفير .

جلست بجواري على الأريكة حاصرة كفيها بين ركبتيها وتابعت :

ـ السلطات الألمانية ألقت القبض عليه قبل أشهر وقد

سلموه إلى الأمريكان بعد التحقيق معه . السفير يقول إن كمال سيسلم لاحقاً إلى السلطات العراقية .

قلت لها :

ـ من فضلك . . أريد أن أرى القلادة عليك .

الميجر ويمبر والأراضي المنخفضة

ألبستني مناسك طاقية صوفية ونظارة سوداء . سهلوا دخولنا واجتزنا الإجراءات الأولى بسرعة إثر اتصال جاءهم من الميجر ويمبر ، حتى الكلاب البوليسية التي شمّتنا كانت متعاونة . أخذونا بسيارة فورد سوداء في التفافات متعددة . كان المكان مختلفاً عمّا أعرف ولم أستطع تحديد موقع البحيرة . توقفنا قبالة باب خشبي ضخم بزخارف مغربية . خرج الميجر لاستقبالنا . كان في الخمسين متوسط القامة ، بأنف كبير يشف عن شعيرات دموية وبعينين زرقاوين وشعر خفيف أشقر . يرتدي طقماً من GANT : حذاء بيج وبنطلون كتان وبلوزة بنية مقلمة .

جلسنا في غرفة انتظار فيها مقاعد من الجلد . اعتذر الميجر ويمبر قائلا إن جميع المكاتب مشغولة . ثم قال بالإنكليزية إن الموقع يتعرض إلى القصف بين الحين والآخر والمكان هنا محصن أكثر . جلبوا لنا قهوة بفناجين عربية بينما الميجر ويمبر يعبر عن سعادته بلقائي مجدداً وأثنى على عملنا الصحفي ، وقال ضاحكا إن التحليلات التي نقدمها مثيرة ومفيدة ، وإنه

بصدد التحضير للقاء خاص يجمعنا بممثل الأمين العام للأمم المتحدة .

ـ سيد ويمبر أنا هنا من أجل سؤالك عن مصير مئات المخطوطات التي أخذتموها من مكتبة الأوقاف ولم تعيدوها .

اعتدل مظهرا الجدية :

ـ حسب علمي أن الوجبة الأولى التي أعيد ترميمها قد سلمت إلى المكتبة . نحن نجري اتصالاتنا مع جهات علمية في الولايات المتحدة وألمانيا من أجل تدريب الكوادر العراقية وأعتقد أن ما تبقى من مخطوطات سيتم إعادته قريباً .

قلت مبتسماً :

ـ لدي وثيقة باسمك يعود تاريخها إلى ثلاث سنوات ماضية فيها هذا الكلام الذي قلته لي الآن . أنا بصدد كتابة ريبورتاج عن المخطوطات العبرية والسريانية التي سحبها الجيش الأمريكي من مكتباتنا ، وأنا على اتصال بصحفيين أمريكان كبار ، وذلك ضمن حملة يقوم بها نشطاء من بغداد والموصل .

وجه بصره إلى حذاء مناسك وقال :

ـ إنه بطء يصيبني بالجنون . هناك الملايين من الكسالى في الولايات المتحدة . مشروع المكتبة يا سيد جلال يعود إلى الجنرال بتريوس . الرجل كان يملك أفكارا نيرة ، وكان يطمح إلى الكثير ولكن الفرقة ١٠١ غادرت الموصل قبل أن تنجز العديد من المشاريع . لقد تطوعت بالعودة إلى هنا . وحين وصلت لم أجد الأمور كما كانت . في السابق كنا أنا والجنرال نتناول

فطورنا كما الجنود العراقيين في المقاهي بشارع حلب، ونصبغ أحذيتنا ونعود مشياً إلى مبنى المحافظة .

وضعت ابتسامة خرقاء على وجهي فتابع ويمبر :

ـ لقد استطعت إكمال مشروع مكتبة جامعة الموصل وأعتقد أننا حققنا إنجازات كبيرة، وعمقنا العلاقات الجامعية الأمريكية العراقية . هذا جانب مشرق رغم الفوضى الحاصلة الآن . أشكرك سيد جلال لأنك نبهتني إلى أمر غاب عن بالي .

سألته :

ـ هل أكتب عن لسانك أن المخطوطات ستعود؟

ـ أنا واثق من هذا . إنه أمر يتعلق بسمعة الفرقة ١٠١ . سأزودك بمعلومات عن الجهات العلمية التي تعمل على صيانة المخطوطات، بالإضافة إلى الصور وأعتقد أن هذا سيدعمك كثيرا في صحيفتك سيد جلال .

شكرته مناسك وأثنت على جهوده . التفت إلي وسألني :

ـ أعتقد أنك ترغب في قول أشياء أخرى .

ـ هناك أمر يخص المنظمات الايطالية . إنهم يقدمون خدمات طبية وتحديداً للأطفال المصابين بالثلاسيميا ؛ وهم يطمحون بمزيد من التسهيلات .

تغيرت ملامحه وهو ينظر في عيني :

ـ الإيطاليون يذكرونكم بالآباء الدومنيكان أيام زمان . أليس كذلك يا سيد جلال؟

ـ أي عمل إنساني هو محط تقدير واحترام سيد ويمبر .

هز رأسه موافقاً وقال :

ـ قبل أن أنسى . أود إخبارك أنني أوصيت السيرجنت مايكل أن يكون أقل إزعاجاً . إنه يحبك كثيراً .

ـ أنا أيضا أحبه . لابد أن نتعاون في أمور كثيرة .

ـ معك حق . أنت بالتأكيد تذكر السيدة هيرو ممثلة السيد بريمر . مستشفى الثلاسيميا كان يحظى وقتها بدعم أمريكي ، والسيدة هيرو حققت انجازاً مهماً لكن الأمر اختلف الآن . لقد سلمنا الكثير من المشاريع إلى العراقيين . عليك أن تسأل المحافظ .

حافظت على ابتسامتي الخرقاء وأنا أنهض . تجاهلني واندمج في حوار مع مناسك التي راحت تضحك . فتح لها الباب وتبعتهما ملقيا نظرة متفحصة على الصالة . استدار الميجر ويمبر ما إن اقتربنا من السيارة السوداء وقال :

ـ يبدو إنك لا ترحب بي .

اعتذرت طالباً التوضيح ، فسألني :

ـ هل أنا من المدعوين لحفل افتتاح قصر بني؟

ـ يمكنك زيارة القصر في أي وقت تشاء ، لكننا لا نرغب في يوم الافتتاح بأي وجود عسكري .

قال بصوت منخفض وهو يميل نحوي :

ـ أنا أجيد اللغة الهولندية والفريزية أيضا .

صافحته قائلا :

ـ الهولنديون الذين سيحضرون الافتتاح هم من أصول عراقية ، ولن تستطيع أن تقنعهم أنك من الأراضي المنخفضة حتى وإن جئت إلى حفل الافتتاح حاملاً ماكنة حلاقة من ماركة فيليبس .

***

انهمكت ماجدة في بكاء طويل وهي تخبرني بما حدث لكمال في ألمانيا ، وقالت إن الجرح الأكبر هو أن نكون بلا قلب ، وراحت ترجوني أن أترك العراق وألحق بها . لم أخبرها أن كمال سلم إلى الأمريكان . الشيء الوحيد المفيد الذي قالته أختي السويدية هو أن نسرين في الموصل . كان النهار قد انقضى والمطر ينهمر منذ ثلاث ساعات . في تلك اللحظة فقط انتبهت لحزني وأنني بلا عائلة ، وأن الوضع الطبيعي لي أن أكون في الشارع على الدوام .

أحضرت لي مناسك قهوة تركية فطلبت منها أن تعيرني مظلة وتعطيني مفتاح البيت . اتصلتُ بحنان وسألتها عن حسن وعمار ، وتكلمت مع ريم وكريم وأخبرتهما أنني سأكون معهما قريباً . عادت مناسك مرتدية جاكيتا جلدياً بحزام مع بنطلون جينز ومتحفزة لأن تكون صلبة الروح ومتينة القرار .

قلت لها :

ـ لا أحتاج إلى هذا . أريد فقط إرشاداتك بشأن الوقاية من البرد .

ردت وهي متشنجة العينين :

ـ سأذهب معك . . سأسير خلفك دون أن تشعر بي . لن تلحظ وجودي . لن أفتح فمي . . أرجوك لا أقبل أن يأتيك الحزن وأنا لست بجوارك .

عبرت إلى أزقة باب لكش ورحت أسير بسرعة باتجاه الباب الجديد . ساعدني البرد والبلل الذي تسرب إلى أقدامي في استعادة توازني . لم تسنح لي الفرصة أبداً للتعبير عن حقيقة قلبي . عشت حياتي متنقلاً بين مريم وفطومة وماجدة وكمال ، ويوم ذهبوا دون أن يقولوا لي عرفت أنني لست مثلهم . لم يتذكرني أحد من أبناء مريم وحتى ماجدة لم تعط الهاتف يوماً لهبة قائلة سلمي على خالك . ولما جاءت حنان وجدتها تجرحني في توحدي وتعتقد أنني لا أستطيع أن أكون شيئاً بلا أفضالها . وحده كمال الذي حاول أن يحبني وأراد أن نكون إخوة . ذلك الشخص الذي فكّر بنفسه فقط وحده الذي انتبه إلى أنني بحاجة إلى دقائق منه . ذلك المتوحش مع العواطف كان يدرك في لب روحه أنني إنسان جيد . ذلك الأناني المتسلق والانتهازي كان يعرف من أنا ووهبني جوهرة عرش الإمبراطورية الآشورية . ذلك القاسي وصاحب القلب الأعمى أرادني قريباً منه ، وأن أكون شخصاً متميزاً . ذلك الذي دمر كل شيء وجلب لنا العار كان أطيبنا وأرقنا وأعذبنا وأصفانا وأكثرنا عراكاً مع نفسه .

أقفلت المظلة كي أشم عطره .

طرقت بقبضتي باباً حديدياً يتجسم من منتصفه رأس أسد .

أجبت السائل :

ـ أنا جلال شقيق كمال . أريد أن أقابل نسرين .

قادني شاب في العشرين إلى غرفة مرتفعة عن الحوش . أشعل فانوساً بعجالة مؤدبة وقال إن الكهرباء ستعود بعد قليل . خلعت حذائي وبقيت واقفاً وسط أرائك مذهبة تملأ مستطيل الغرفة ، بينما رخام الجدران القاتم ينفث برودة عريقة . أطلت نسرين بعد دقائق برهافة شبح . كتلة سوداء طويلة وصوت مخدوش الكبرياء . قبلت رأسها ، فاتضح لي ذبولها المنكسر وسمرتها الحقيقية .

قلت لها :

ـ كان يجب أن تتذكريني أولاً .

استوقفها شهيق عميق وأجابت :

ـ بالأمس وصلت إلى الموصل قادمة من عمّان التي بقيت فيها ثلاثة أشهر . لقد حاولت إنقاذه لكنني لم أستطع .

ـ قلبك لن ييأس .

نظرتها الدامعة أوجعتني . كاشفتها بحرجي من أنني لم استطع انتظار الصباح وقلت لها :

ـ جئت من أجل أن أرى أولاد كمال .

وضعت كفها على خدي وابتسمت :

ـ لقد أحبك أكثر منهما . . إياك أن تصدق ما يقال عنه .

استوقفتها متسائلا :

ـ هل أرسل لي كمال نقوداً مع توفيق؟

ردت مستغربة :

ـ لا علم لي بهذا .

ـ يقول توفيق إن كمال أرسل لي عشرة آلاف دولار .

اقتربت مني وقالت :

ـ أنا كنت أعمل في صالون حلاقة وكمال يعطي دروساً لأكراد عراقيين ، وهو لم يلتق بتوفيق إلا مصادفة في مؤتمر أقامه متحف برلين ، وقد أزعجه هذا وعمل على تجاهله وعدم إفساح الفرصة لتوفيق مجددا . لقد قطع كمال علاقته بهذا الشخص ما إن تمكنا من الاستقرار في ألمانيا . كنا نحاول أن نبدأ من جديد وكمال تغير كثيراً ، وكان جاداً في أن يدير ظهره للماضي وينسى أكبر قدر ممكن من أحزانه السابقة ، حتى إنه فضل برلين على لندن كي يبتر أي صلة له بالماضي مهما كان جدواها ومردودها المادي . لا أعتقد أن كمال يمكنه إرسال مبلغ كهذا إليك .

ـ وماذا عن سندس؟

ـ إنها صديقتي وجاءت إلى ألمانيا برفقة زوجها الذي هو صديق كمال ، وقد أوصيتها أن تكون قريبة منك ومن حنان .

ـ أخي يعرف السيد صافي؟

ـ نعم فهم أصدقاء منذ أن كان كمال يدرس في لندن .

سألتها وقلبي في حلقي :

ـ هل الاعتقال جاء بسبب القلادة؟

ـ أي قلادة؟

ـ قلادة الملكة شمشو .

وضعت يدها على كتفي وقالت :

ـ يبدو أنك لا تعرف شيئاً عن الموضوع يا جلال . القلادة سلمها كمال في وقتها إلى ديوان الرئاسة . لقد اتهم الألمان زوجي بصلته بعراقيين خططوا لاغتيال عسكري أمريكي في برلين . لقد ألقوا القبض على ثلاثة شبان كان كمال يتردد على شقتهم للتدريس .

سألتها وأنا أراها تعلو عني :

ـ ما اسم هذا العسكري؟

ـ ويمبر . . الميجر ويمبر .

شاكر يتألق وخوليو على السور

في العاشرة صباحاً جاءنا إبراهيم حاملاً في سيارة بيك آب خمسة أشخاص تنتفخ صدورهم بالعضلات ، تجولوا في المكان ثم ذهبوا إلى مواقعهم لحراسة القصر من جهة النهر . استعنا بشريف لتفتيش المبنى من الداخل وتفقدنا مواقع المراقبة في الخارج . كان قصر بني يبدو لامعاً وجميلاً وقد توزعت في حديقته فلكسات إعلانية للمشاركين في الحفل ، وحجز الإعلاميون أماكنهم وثبتوا كاميراتهم عند المدخل وفي القاعة الكبيرة . تأكدت بمعاونة شاب مسيحي يرتدي ثياباً صيفية من سلامة الربط الكهربائي ، وأن الأجهزة الصوتية في أماكنها ، وانتبهت إلى أن رائحة القصر تبدو أصيلة والترميمات في شكلها النهائي اليابس تخلو من الفوارق الزمنية .

منذ أربعة أيام وتلفزيون الموصل يعلن عن موعد الافتتاح ، وكرر مراراً عرض تقرير مدته نصف ساعة عن القيمة التاريخية لقصر بني . كان إبراهيم ، حتى صباح الأمس ، يدافع عن رعبه من احتمال أن تستهدف جهة مسلحة القصر متأثراً بمخاوف حاصره بها آباء فرقة الأطفال الموسيقية ، إلا أنه سرعان ما كفّ

عن الاعتراض ، واندمج معنا في التحضيرات ، نافيا أن يكون السيد صافي قد ألزمه بعدم التأثير على معنوياتنا . لم أكن ميالاً للاستعانة بالشرطة لحماية القصر ، ووجدت السيد صافي يؤيدني قائلا إن الوقت قد حان لاستعراض ثقتنا بأنفسنا . في أحيان كثيرة تبدو لي حواراتنا مع بعضنا فخمة ومتخمة بالروح الخطابية ، مثل سيناريو فيلم تاريخي فقير أنتج في ثلاثينيات القرن العشرين . هذا ما صارحت به السيدة سندس في الساعة التي قضيتها في بيت المكاوي ، وقد وافقتني الرأي وقالت إن السيد صافي هو الآخر يراني شبيها بالخطيب الخجول إيسوقراطيس ، وإن هذه المثالية العجيبة تجدها طريفة .

مع انتصاف النهار جاء شاكر بهيئته الغرابية الحزينة ليبلغني أن أولاد العاهرات أحالوه إلى التحقيق ، وأنه قرر أن يعيش إلى الأبد في السينما مع عنبر عربانة . تقطعت حلقة تعاطفنا بوصول فرقة الأطفال مع آبائهم وقدوم مجموعة من أساتذة وطلاب معهد الفنون الجميلة . سألني إبراهيم بعد أن أوصل مجموعة من الموسيقيين إلى أماكنهم إن كنت أعرف ماذا سيحدث بعد ساعة ، ومن الذي سينظم هذه الفوضى . اقترحت مناسك أن نستعين بمقدم برامج تلفزيونية ليكون عريفاً للحفل . ناديتُ شاكر وسألته إن كان يعرف أحدا من الذين يقفون هنا في القاعة .

ـ هذا الذي يرتدي البدلة السوداء ، ويبدو عليه القلق هو الموسيقار العظيم خالد محمد علي . أما هذا الذي يضحك فهو

العازف نبيل حسون ، وعلى يساره الملحن زكي إبراهيم . أما الذين يلتقطون الصور ، فهم المطربون فخري فاضل ، وعامر يونس ، وجاسم حيدر .

قلت له مبتسماً :

ـ مبروك . . أنت عريف الحفل .

اعترض إبراهيم :

ـ إنه سكران ورائحته نتنة .

ـ احلق ذقنه وسيكون أفضل من جورج قرداحي .

تصاعدت من أركان القاعة نغمات اختبارية . تشجع أربعة من شباب البيوت المجاورة ودخلوا إلى حديقة القصر ، فدعاهم شاكر إلى الاقتراب أكثر . ظهرت مناسك ومعها طالب نحيل بأنف كبير يحمل جيتاراً . أجلسته على سلم المدخل . لم يرفع رأسه . أخذ يضرب على الأوتار بينما شاكر يحرك ذراعيه داعياً الشباب إلى تشجيع العازف .

قبض أحدهم ، من الخلف ، على كتفيّ وقال بأذني :

ـ برافو جلال . . هذا إنجاز باهر يا ولد .

التفت ، وجدتُني أمام توفيق الحداد ، وجه وسيم ببشرة صافية البياض ، دقيق الذقن والأنف بلا شارب وبشعر طويل مفروق من المنتصف . ضمني إلى صدره فتصلبت وأنا أرحب به بكلمات معتدلة . مال فاسحاً المجال لبصره وسألني :

ـ ذلك السمين الأحمر هو إبراهيم أليس كذلك؟

شد على يدي وتابع :

ـ كنت أظنك ستقلب الدنيا كي تجدني .

قلت :

ـ كنت اعلم أنك ستختار الوقت المناسب .

ـ لا يبدو عليك أنك انتظرت هذا يا رجل .

لمحت مناسك تنبه إبراهيم الذي نظر إلينا وأسرع إلى توفيق ليغمره بالقبلات ويبالغ بالترحيب .عرّفته إلى مناسك وحكيت له عمّا فعلناه بالقصر ليكون جاهزاً لشيء كهذا . أبدى توفيق إعجابه وقال إنه كان يقول لكمال إن الحياة لابد أن تعود إلى هنا . لاحظ توفيق انزعاجي فوضع ذراعه على كتفي وتساءل إن كنا نقدم مشروبات ساخنة هنا . طلبت من مناسك فتح جناح الإدارة ودعوته إلى شرب كوب شاي .

تغيرت ملامح توفيق وهو يعبر عن أسفه لما حدث لكمال وقال إنه على اتصال مع سياسيين أكراد من أجل الضغط على الأمريكان كي لا يبالغوا في تحقيقاتهم مع أخي ، وطمأنني إلى أنه تحدث بالأمس مع نسرين في ألمانيا . استفزت هذه الجملة مناسك التي وقفت تنظر إليه بملامح عدائية . أخرج توفيق من جيبي جاكيته رزمتين من الدولارات وقال لي إن كمال أرسل لي معه هذا المبلغ منذ أشهر ، واعتذر عن تأخره لارتباطاته الكثيرة واضطراره إلى مرافقة وفود من اليونسكو والأمم المتحدة في أكثر من مدينة في العراق . وضع النقود على المنضدة في الوسط . قدمت مناسك له الشاي فشكرها بالانكليزية وراح يحدثني عن الجهود الدولية لإعادة آثار العراق ، وأن كمال حقق

إنجازات كبيرة في هذا المجال ، وأنه في الوقت الحالي يكمل ما بدأه أخي ريثما تعود الأمور إلى سابق عهدها ويطلق سراحه .
سألته إن كان مروان مساعد كمال السابق معهم في الفريق . ضحك توفيق وأشاد بعبقرية أخي التي كوّنت فريقاً مدهشاً أحدهم مروان الذي ساهم في إعادة ألف قطعة أثرية إلى المتحف العراقي . نوه إلى أنني أعرف الصعوبات التي واجهت كمال في البداية ، ولكنه تغلب عليها بذكائه وبدعم من أصدقائه الانكليز ، ونجح في إرجاع ثلاثة آلاف قطعة أثرية ، وهذا الأمر أذهل الجميع ، وأن حكومة كردستان ومعها حكومة بغداد تقدران هذه الأفعال ، وأن الأمر المعقد الوحيد هو القطع المهمة والتي يخشى هو وفريقه عليها من السرقة مجددا ، قائلا إن هناك دولاً من الاتحاد الأوربي لا تثق بالحكومة العراقية ، ولهذا تم وضع بعض الآثار تحت وصاية دولية بأمر من الأمم المتحدة ، وأنه مكلف الآن بمهمة من هذا النوع .

وجهّت ابتسامتي إلى مناسك التي ذهبت روحها إلى أننا محظوظين بشكل لا يصدق ، مبشرة ، وكأن توفيق ليس أكثر من هواء ، بنجاحات تشفي القلب . وضحكت كمخمورة وهي تؤكد أن رائحة شاكر هذه المرة ستفيدنا من حيث لا ندري . تابعنا توفيق مدارياً الحرج . تطلع إلي منتظرا أن أشرح له :

ـ أنت تكذب يا توفيق .

ـ عفوا . .

استعدت الجدية :

ـ أرجو أن تأخذ نقودك وتخرج من هنا بهدوء .

ـ هل جننت يا جلال؟

ـ هذا جنون وتهور والعواقب ستكون تعيسة . أعرف هذا لكن عليك أن تأخذ نقودك وترحل من هنا .

قالت له مناسك :

ـ اسمع الكلام يا شاطر .

نهض قائلا :

ـ أنت تمزح يا صديقي .

ـ كنت أفعل هذا في الماضي ، أما الآن فلا . كف يا توفيق عن زج كمال في أعمالك القذرة .

كررت مناسك خلفي :

ـ نعم كف عن هذا .

رفع صوته بعصبية :

ـ أسكت هذه الدمية يا جلال ودعني أوضح لك .

مشت مناسك وفتحت الباب . اقترب توفيق مني وقال إنه ليس أكثر من حامل رسالة ، وطلب أن أستمع إليه ، وأبدى أسفه على سوء ظني به . ضج القصر بالتصفيق . لحظات وتعالت الموسيقى بعذوبة ، وأخذت فرقة الأطفال تنشد موطني . احتمى توفيق بذراعي محاولاً تليين الموقف بعبارات ملطفة من أرشيف علاقتنا . تصاعدت الموسيقى أكثر ، وارتفعت الثقة في أصوات الأطفال .

ـ أنا هنا من أجل أن أعرض عليك مبلغ مليون دولار مقابل

قلادة شمشو ابنة سارة .

أبديت دهشة ساخرة ، وشتمت خالته بسوقيتي القديمة معه ، فعاد توفيق ليقول مستردا تماسكه وهو يشد على ذراعي :

ـ لقد بذلت مجهودا لأجعل الأمر ينتهي بتصفية مالية . هذا كل ما أستطيع قوله لك ، لكن عليك أن تعرف أنني أبعدت عنك الأذى طوال سنوات لأنني أحبك . صدقني يا جلال ، أنا كنت أحميك من شر لا يمكنك تخيل قوته .

قالت مناسك بروح راقصة :

ـ أتسمع يا جلال ؟ . . ما أجمل هذا .

سألتها بدوري إن كانت قد سمعت هذا الرقم الدولاري المخيف ، فردت بأنها لا تحب أفلام العصابات . أبعدت يده عني قائلا :

ـ يجب أن أكون معهم يا توفيق .

استوقفني :

ـ هذا المبلغ أقصى ما يمكن دفعه . لا تطمع بالمزيد .

ـ مع الأسف القلادة ليست بحوزتي . لقد سلمها كمال إلى ديوان الرئاسة .

ـ القلادة لم تسلم إلى جهة رسمية . كمال لا يثق بأحد غيرك .

اشتد التصفيق . قالت مناسك ضاحكة :

ـ شاكر قرداحي يتألق . . أتسمع يا جلال؟

تساءلتُ :

ـ أهذا هو دليلك . . ثقة الأخوة؟

رد مبتسماً :

ـ دليلي هو خوشابا بطوخا . . هل تذكره يا جلال؟

أخذ رزمتي الدولارات . وزعهما بتمهل على جيبي جاكيته الداخليين . واجهني قائلا :

ـ لا أعرف إن كنت سأعود إليك يا صديقي . إن لم أفعل ، فاعلم بألا فرصة لك في النجاة .

***

وجدنا عازف الجيتار راكبا السور المطل على الشارع مرتفعا بمترين عن العشرات من الشباب بملابس بيتية وقفوا بتلاحم عاطفي وهم يرفعون إليه هواتفهم المحمولة ، بينما هو يعزف لحن أغنية لخوليو اجليسياس . لم تقل مناسك شيئا . وقفت ترقبني وأنا أتأمل فلكس الموسيقار أكرم حبيب .

الأجواء في الداخل اختلفت ما إن قدّم خالد محمد علي معزوفة التل والقمر . دام ذلك لدقائق مشحونة . اندفع بعدها الجمهور بالتصفيق فتدخل شاكر محذرا من الأنفلونزا الهندية ، منقذا الموسيقار الذي رفع العود عاليا ليحميه من عاطفة المستمعين المتحلقين حوله . دعاهم شاكر إلى ضبط النفس ، وأعلن عن دور مطرب القلوب الصريعة ، صاحب الصوت الدبابي ، ومسيل الدموع فخري فاضل . جرني إبراهيم قائلا إن شاكر حول القصر إلى ملهى . هدّأت من انفعاله ورجوته أن

يقدر أننا بحاجة إلى أي نوع من الفرح مهما كانت درجة رعونته ، وأن الجميع هنا مثل أصابع الديناميت ، وأفهمته أن هذا هو حال الحفلات : انشراح ، وانطلاق ، ومتعة . طوقت رقبته بذراعي وقلت :

ـ برهوم أنا بحاجة إلى ثلاثة آلاف دولار .

صفن قليلا وسألني :

ـ متى ترجعها؟

ـ لا أعرف .

ـ سأعطيك إياها حين نرجع .

قال شاكر ، عبر مكبرات الصوت ، إنه يشعر بنشوة كبيرة ، وطالب الجمهور بتشجيع استعمال شفرات الحلاقة بأنواعها ؛ لأن هذا له علاقة بالصدق والحياة . وقال إنه يعكف على تأليف كتاب سيهيج الجماهير العريضة ، وأعلن عن مطرب الجروح ، سجين أقفاصنا الصدرية ، ومستأصل هموم القلوب ، محبوب سيارات الكيا الأول ، عامر يونس . أطلقت مناسك ضحكة هستيرية جذبت الأنظار . أخذتها إلى الحديقة حيث كان عازف الجيتار ، قد جمَعَ من الشباب والأطفال ما يفوق عدد الذين في الداخل . جلسنا على السلم . سألتني مناسك إن كنت أشعر بالسعادة ، فصارحتها بأن توفيق بدد بهجتي ، وأنني لا أعرف ما سأواجه غداً . من جمال مناسك إنها تبحث عن السبب وتدقق في كل ما يمكنه أن يتحول حسب تعبيرها إلى شوكة في الحلق ، وتشعر بتقصيرها ، وأنها تهاونت ،

وسهت ، وغفلت ، وأن ما بي هو خطأ وقعت به . لا تؤمن بدورة المزاج ، وتتهم نفسها بكل ما يؤذي استقراري النفسي .

سألتني :

ـ ماذا ستفعل .

ـ سأواجههم بطريقتي التي لا أملك غيرها .

ـ افعل ما يحلو لك لكنني أنا أيضا سأواجههم بالطرق التي أعرفها وهي كثيرة وعليك ألا تعارضني . أريدك أن تمنع كريم وريم من الذهاب إلى المدرسة وتوصي حنان بعدم الخروج وسأستعين بأبناء خالاتي وأخوالي في مراقبة بيت أهل حنان وبيتك ، وسيرافقك أحدهم داخل البيت وآخر خارجه ، وعلينا تجنب الذهاب إلى شارع الدواسة وتغيير مساراتنا . من الغد ستكون تحت حراستي المشددة .

ـ الميجر ويمبر سيتحرك هذه المرة .

ضحكت مناسك قائلة :

ـ سنؤخره وربما نشلّ حركته تماماً .

ـ نحن؟

وضعت كفها على فخذي وقالت :

ـ مشكلتك أنك لا تعرف قيمتك ، ولا تقدر مواهبك ، ويبدو أنك لا تعرفني ، ولا تقدر مديات جنوني .

ـ يبدو هذا .

ـ لقد سجلت حوارنا في القصر مع ويمبر . الذي تجهله أنه قال لي بالانكليزية جملة فيها نبرة تهديد لك . وبما أنك أشرت

إلى الصحفيين الأمريكان ، فأحببت أن اجعل الأمر حقيقة . التسجيل الآن يا حبيبي بحوزة الواشنطن بوست . وهناك ما هو أهم من كل هذا ، وهو أن محاولة الاغتيال التي تعرض إليها ويمبر جرت في مراسيم تسليم آثار عراقية ، وأن الذين قاموا بها هم طلاب أكراد ودوافعهم ليست سياسية . ويمبر متهم بجريمة اغتصاب فتاة كردية ، وزج كمال في الموضوع ليس له علاقة بمحاولة الاغتيال وإنما بقلادة شمشو . وإذا ما جرت محاكمة ويمبر فإن كمال سيطلق سراحه سريعاً . إنها مسألة وقت لا أكثر .

أخذ جيتار السور يعزف لحن «ون يا قلب» لإلهام المدفعي . جاء إبراهيم ليجلس بجوارنا . سألني عن الساعة التي علينا التوقف عندها . كانت الشمس توشك على إكمال المغيب :

ـ الأمر بيد الوسخ .

قالت مناسك :

ـ سأرى إن كان بالإمكان أن يفعل هذا الآن .

سألته بعد أن ابتعدت مناسك :

ـ هل تشعر بالسعادة؟

رد إبراهيم :

ـ كنت أفكر ماذا سأكتب للدومنيكوس غداً . مادام كلامنا سينشر فانا أريد أن أقول كل ما في قلبي . الكارثة أنني أحببت شاكر الوسخ .

طلبت منه أن يعيرني الأشخاص الخمسة الذين جاء بهم صباحاً .

ـ هم لك ، لكن عليك أن تطعمهم السمك .

اعترضتني مناسك عند الباب قائلة إنها ستنتظرني في جناح الإدارة . لحقت بها بعد أن تخلصت من رجل ادعى أنه يملك أسراراً فنية تخص المطربة عفيفة اسكندر .

أدخلتني مناسك ، ألقت شالها وجرتني إليها ملصقة ظهرها في الباب . كانت مأخوذة بترقب أحسسته ينبض في مفاصل أصابعها . رائحتها الأنثوية تنضح من عينيها وقسماتها المتوسلة حادة ومتوثبة . أمسكتني من رقبتي وراحت تلامس وجهي بخديها وأنفها وتمسح شفتيها بذقني ، بينما أصابع يدها اليسرى تفك أزرار ثوبها الطويل البنفسجي . طوقت خصرها وغبنا في قبلة أخذت تتوحش بانفعال محموم . عضت على شفتي وهي تدخل ساقها بين ساقي . التقطت لساني ثم أفلتته وراحت تطبق على وجهي بكفيها وتلعق ذقني وأنفي وعيني وأنفاسها تتسارع .

أسقطت عنها الثوب وجردتها من بلوزتها . توهجت القلادة على صدرها وثقل الهواء برطوبة أنوثتها . قبلت يد شمشو وجوهرة العرش :

ـ ملكة السماء والأرض .

ارتعشت مضيقة على ثدييها :

ـ ملكتك تريدك .

أخرجت ثدييها :

ـ اركع .

نزل فمي ببطء . أمسكت رأسي :

ـ جلالتك . .

ـ أجل . . أكثر

***

قال شاكر ما إن رآنا ندخل :

ـ سيداتي سادتي عليكم أن تذهبوا إلى بيوتكم الآن قبل أن يبدأ حظر التجوال ، لكن القصر سيكون مفتوحاً لمحبي الموسيقى يوميا ، وأنا أعدكم بتقديم المزيد من الحفلات وإقامة ندوات ومعارض رسم ، والأهم من هذا أن تنتظروا حفل توقيع كتابي القادم الذي يتحدث عن جداتكم . . شكراً لراعية الحفل شفرات الحلاقة ماركة التمساح . . كان معكم المثقف الليبرالي شاكر البدران الملقب بالوسخ .

استغرق إخلاء القاعة قرابة الساعة ، تلقينا خلالها التهاني وجرت حوارات بشأن تنظيم نشاطات وفعاليات فنية أخرى قبل موسم الامتحانات . تساءلت مناسك بخبث وأنا أغلق الباب عن سبب غياب الهولنديين عن الحفل ، فقال إبراهيم إنهم اعتذروا خوفاً من الأنفلونزا الهندية .

وجدنا الشباب في الخارج قد أشعلوا شموعاً على السور ووقف أحدهم على سلم خشبي يحمل لفافة خبز وعلبة مياه

غازية يطعم، ويشرب بالتناوب البطيء عازف الجيتار الذي كان يؤدي لحن «ردتك ولو شباك» للمدفعي بنشاط وزهو.

استوقفني إبراهيم عند البوابة :

ـ ألن ننزله ونخلي القصر؟

ـ دعهم لسعادتهم.

جوهرة العرش

أخذني الخادم مباشرة إلى سرداب الوثائق . استقبلتني السيدة سندس معتذرة عن انشغال السيد صافي بالأسفل . كانت ترتدي بدلة بنية بجاكيت قصير مقفول وتحته بلوزة بيضاء تغطي نصف حوضها . تأملتني بابتسامة مترددة ، ثم عبرت عن سعادتها بما جرى في افتتاح قصر بني . نظرت إلى أصابعها وقالت إنها زارت نسرين بالأمس ، وإنها ستؤمن لها وضعاً مريحاً في القريب ورجتني أن أتفهم موقفها ، وأن أقدر حرص السيد صافي على عدم مزج الأمور الشخصية بالعمل . طلبت منها ألا تقلق ، وقلت لها إن السيد صافي يعرف أين يضع ثقته ، وإنني مثله لا أخلط ما يحدث في الخارج مع ما يجري هنا ، وعبرت لها عن امتناني وتقديري لمواقفها مع أسرتي وأنني لا أضع الجميع في ميزان واحد حتى وإن كانوا أخوة .

هبطنا السلم ، أصوات النقر على لوحات الحروف كانت تفرض جواً من الهيبة على المكان ، وتدعم الزي الموحد للمنضدين ؛ وتشد من تشابه أجهزة الكومبيوتر وتناسق المكاتب والأدوات . سألت السيدة سندس إن كان زوجها من

المتأثرين بالتناسخ الاشتراكي ، فضحكت محذرة من مكاشفة السيد صافي بصور من هذا النوع فطمأنتها بأنني لا أملك الشجاعة لذلك .

خرج إلينا السيد صافي من مكتب بواجهة زجاجية ودعانا إلى الدخول . كان أكثر هرماً من السابق ويبدو عليه أنه يشكو من صدره . وجدت نفسي بين كومة من الأوراق وعلب الأحبار ورقائق معدنية . جلسنا أنا والسيدة سندس على كرسيين من البلاستك ، بينما السيد صافي يتحرك يميناً ويساراً وهو يحك جبينه بسبابته . أعطى ظهره لزوجته وقال لي :

ـ عليك أن تجهز نفسك لمشاريع أخرى . سنقوم بشراء منازل تعود لأدباء وفنانين ونحولها إلى متاحف ، وأفكر أيضا بإنشاء مسرح صيفي . نحن طبعاً سنطرح الجزء الأول من الوثائق بعد شهر وستكون على شكل كتاب سنوزعه بالمجان . لقد وضعت مقدمة مناسبة . سيبدو الأمر كأنه مجموعة شهادات أو يوميات . هدفنا هو فتح مجال البحث . بإمكاننا الآن الجهر بالحقيقة وعلى الآخرين أن يتحققوا من صدق كلامنا .

عرضت عليه أن يجلس في مكاني . وضع يده على كتفي وسألني :

ـ أأنت من علق صورة تلك القلادة على مئات الأبنية في الموصل .

ـ نعم أنا من فعل هذا .

ضحك السيد صافي عميقاً والتفت إلى زوجته قائلاً :

ـ ألم أقل لك .

اقترحت عليه أن نروج للكتاب بهذه الطريقة ، وأن الأمر لن يكلفنا سوى القليل من السمك . لوح بيده مستفهماً فقالت السيدة سندس :

ـ ستغري القلادة كل نساء المدينة .

قال السيد صافي :

ـ أنا من جهتي سأذهب إلى سوق الذهب غداً ، فماذا عنك يا سيد؟

ـ أخبرني كم ستكلفك القلادة كي أستدين المبلغ منك .

سألني بعد أن هدأت أنفاسنا :

ـ أنت كتبت تحت صورة القلادة عبارة جوهرة العرش . هل تعتقد حقا أنك تملكها؟ .

نظرت إلى السيدة سندس وقلت :

ـ الخطأ الوحيد الذي وقعت به يوم افتتحنا قصر بني أنني لم أعترف بامتلاكي جوهرة العرش ، وها أنا أفعل . إنه أمر لذيذ يشبه الاعتراف بالحب .

استعاد السيد صافي جديته وهو يسألني :

ـ أتعرف ماذا يوجد في الوثائق التي سننشرها سيد جلال؟ .

ـ لا أعرف يا سيدي .

ـ الخيبة ، لا شيء سوى الخيبة والسير في الفراغ الأعمى .

***

وصلت إلى شارع الدواسة في الثانية بعد الظهر . كانت الشرطة قد قطعت الشارع المتجه نحو مبنى المحاكم وأخلت المكان . رأيت العديد من الإطفائيين ببزاتهم الزرق يسرعون في لف خراطيم المياه وتسلق سيارتهم . وجدت مناسك بانتظاري وهي يابسة الوجه ومحمرة العينين . حجزتني معترضة طريقي ، لكنها لم تتمالك نفسها وقالت باكية :

ـ قتلوا الحاج جبار وأحرقوا المكتبة .

أقبل إبراهيم بمظهر مرتبك وقد انتشر البلل في بنطلونه الجينز . أبعد مناسك وجرني بالاتجاه المعاكس . أفلتُّ نفسي من ذراعه ، ولكنه تمكّن مني وقال مهدئاً :

ـ لا فائدة . حدث هذا في العاشرة صباحاً وانتهى الأمر . لنجلس في الدمنهوري .

قالت مناسك وهي تسرع خلفنا :

ـ عنبر وشاكر بخير اطمئن .

عقّب إبراهيم موضحاً :

ـ أطلقوا الرصاص على السينما وفروا . لم يتمكنوا من فعل ما هو أكثر .

كرر كلمة اهدأ كثيراً ونحن نجلس على خط الكراسي في جهة تطولها الشمس . رأينا سيارة الإطفاء تغادر عكس اتجاه السير تتقدمها سيارة شرطة . أخبرني إبراهيم أنه اتصل قبل نصف ساعة بالمستثمر الهولندي وأبلغه بما حدث ، وأنه وصل متأخرا بعد أن تلقى الخبر من عنبر ، ويبدو أن المهاجمين أرادوا

إحراق المكتبة ، وأنهم أطلقوا النار على الحاج جبار بعد ذلك وأصابوه في ذراعه ، ومن المرجح أن الوفاة حصلت نتيجة سكتة قلبية .

أدرت وجهي إلى اليمين ، الشارع مزدحم بكائنات مكعبة تنتقل من مطعم أكلات سريعة إلى آخر . كروش منتفخة وقامات قزمية وملابس بائسة . ملامح كالحة ولحم غريب . وجوه غير متناسقة وغير منتمية لدرجة البرودة ونكهة الهواء لا تشبه أحجار الأبنية . المكان هناك في الركن المقابل يخلو من طارق بائع الجرائد . الكائنات الغريبة تمر دون اكتراث ، وحتى دون أن تنتبه إلى المياه المخلوطة بالدم والرماد ، المنسابة من المكتبة والمتجمعة عند أقدامهم .

طلب إبراهيم من النادل أن يستبدل لي الشاي . اعتدلت مناسك وهي تحدق بي من خلف ظهر إبراهيم .

ـ لولا أوهامي وحماقتي لما قتلوه .

انفعل إبراهيم وفتش جيوبه . قاطع مناسك وقال مهدداً :

ـ لا تفقد شجاعتك وحلمك . أنت علقتنا بكل هذا فلا تكن جباناً . إن خفت يا جلال فسينهار كل شيء . الحاج جبار كان واحداً من الملائكة السريين ، والأمر لا يتعلق فقط بكتب جديدة عرضناها في المكتبة .

قالت مناسك :

ـ نحن أيضا سنموت بعده وربما بأبشع من هذه الطريقة .

أيدها إبراهيم :

ـ صح .

وجدنا شاكر يقف أمامنا بمحاذاة الرصيف ناشراً ذراعيه .

ـ أعزيكم أصدقائي .

رفع صوته وهو يتابع :

ـ الجبناء يغدرون كعادتهم . أتسمعون؟ . . اختنا مناسك جالسة . عذراً سأشتم الكلاب في الداخل وأعود إليكم .

همس إبراهيم في أذني :

ـ السيد صافي لا يريدنا أن نظهر في مراسيم دفن الحاج .

جلس شاكر بجواري بعد أن أجج الأصوات في عمق المقهى . وضع يده على ساعدي وقال :

ـ غداً سأجلب كل كتبي الشخصية وأفتح بسطة أمام المكتبة .

قلت :

ـ بل في المكتبة نفسها إلى أن نعيد افتتاحها . سأتكلم مع أولاد الحاج جبار وسنبدأ من الغد عملية ترميمها .

***

تفقدنا بمساعدة مصابيح يدوية الباب الخلفي للسينما ؛ فاقترح إبراهيم أن نرفع المولدة الكهربائية مؤقتا ونزيل أي أثر للزيوت والمحروقات ، وأن ندعم البوابة من الداخل بأكياس الرمل ، وأن نضيف المزيد من الأقفال إلى البوابات السلايد . لم يتحمس عنبر لذلك ووافقه شاكر الذي سألنا إن كنا نخاف على المبنى أم عليه هو وعنبر . تجاهله إبراهيم وطلب من عنبر أن

يكون الأعقل ، وأن الأمر أخطر من التمسك بجماليات فارغة لأن ما حدث للمكتبة والسينما لم يكن مزاحاً . عرضت عليهما نقلهما للسكن في مكان آمن وتعهد إبراهيم أن يجعلهما كسلطانين . تبادلا عنبر وشاكر النظرات وقالا إنهما يرفضان الانتقال ، وإن بإمكاننا فعل ما نريد بالسينما لكنهما لن ينتقلا إلى أي مكان .

استغرب إبراهيم ، ونحن في طريقنا إلى بيت المكاوي ، من الزيادة الملحوظة بنسبة الجنون في المدينة ؛ فوافقته قائلا إن عنبر وشاكر يشعران بالقوة لأنهما الآن يملكان قضية . إنه فرح متأخر ويحتاج منهما إلى يقظة وتفاعل ورجولة وثقة بالنفس . إنهما على خلاف مع الواقع ولكنهما يحاولان مرة أخرى الاندماج مع العالم بأحلام حقيقية وجادة . قال إبراهيم إنه لا يتكلم عن عنبر وشاكر وإنما عن صورة القلادة التي تملأ الشوارع وعن ذلك المجنون الذي دفع ثمن هذا الإعلان التجاري الأحمق .

قابلنا السيد صافي في غرفة القراءة بحزن هرم ، مرتدياً بدلة سوداء ويده اليسرى مضمدة . أخبرته أنني وعدت بإعادة ترميم المكتبة وأنني أريد موافقته على ذلك ، فقال إنه متعب من مراسيم الدفن . ثم انتبه وهو يجلس . اعتذر قائلاً إنه سيوصل إلى إبراهيم في الغد مبلغ مليون دولار ، وإن علينا إعادة المكتبة بأبهى صورة .

قال إبراهيم :

ـ سيد صافي . هذا مبلغ كبير .

أخرج منديلا مطرزاً بالحرف الأول من اسمه وقال بصوت واهن :

ـ لا عليك . . لا عليك .

قلت :

ـ سنأتي إليك في صباح الغد سيدي . عليك أن ترتاح الآن .

ـ أريد أن أرى في شارع الدواسة خمس مكتبات جديدة .

قال إبراهيم :

ـ علينا حماية قصر بني .

ـ الذين أحبوا عازف الجيتار سيدافعون عن القصر .

احمرّ إبراهيم :

ـ سيدي لا أحد سيدافع عنا . . الذين سهروا مع عازف الجيتار عادوا إلى بيوتهم ، ومن المؤكد أنهم الآن يقولون عنا إننا كفرة وعملاء وأولاد كلب . لقد شربوا المياه الغازية وانتهى الأمر . جاءوا من أجل الكيك والأكل . سيدي لقد أحرقوا مكتبة . سيدي إننا نقتل بعضنا البعض .

ـ لهذا نحن لا نملك أي خيار آخر .

ـ سيد صافي لقد قتلوا الدكتور حازم من قبل لأنه أسس فرقة مسرحية ، واليوم قتلوا الحاج جبار وأحرقوا المكتبة وأطلقوا النار على السينما . هذا يعني أن أمرنا قد انكشف وهناك أعداء يتعقبون تحركاتنا وأفعالنا . أرى أن نتريث . لنؤجل نشر الوثائق

ونعمل على إعادة تنظيم الدومنيكوس .

نهض السيد صافي بتثاقل وقال :

ـ لقد أطعمنا الناس طوال قرون بأموال طائلة ، وكل ما حققناه هو أن التجار ماتوا وذهبوا إلى الجنة ، أما الذين كنا نطعمهم ونساعدهم فهم في الشوارع الآن كما كانوا منذ قرون . هذا ما تقوله الوثائق يا سيد إبراهيم . لم نفعل شيئاً له قيمة . أنا أنفق من مالي الخاص الذي لم يبق منه الكثير من أجل أن تكون لنا دومنيكوس جديدة وحقيقية .

قال إبراهيم بصوت منكسر :

ـ أرى يا سيدي أن تترك هذا البيت وتنتقل إلى مكان آخر .

ـ سأسافر في الغد إلى أربيل لأمر يتعلق بصديق لي التقيته في لندن قبل سنوات . لا تقلق يا سيد إبراهيم لن أخيب ظنك .

سألته :

ـ سيدي كم يبلغ عددنا . . أقصد عدد الذين يعملون في الدومنيكوس؟

وضع يده على كتفي وقال مبتسما :

ـ الحقيقة لا أعرف بالضبط . الأمور لم تعد زاهية كما كانت . الكثيرون هاجروا أو انشغلوا بأمورهم الخاصة أو ملّوا ، لكن من المؤكد أنهم لا يقلون عن ثلاثة أشخاص .

***

فتحت عيني على صورة آدم وحواء . تفقدت الموبايل فوجدته يومض برنين فائت . غطيت ساق مناسك واتصلت بياسين بينما الصداع يطوق رأسي :

ـ أين أنت يا أستاذ؟

ـ ماذا حدث؟

ـ الأمريكان داهموا بيتك واعتقلوا ابن عمك .

ظهور الملائكة

بدا البيت من الداخل وكأن دبابة قضت ليلتها فيه . لم يرَ ياسين شيئاً ، وقال إنه لزم بيته بعد أن رفض المختار التدخل ، وإن كل ما شاهده هو لحظة انسحاب الجنود الذين كانوا بعدد كبير . استبعدت أن يكون مايكل هو من أحدث هذا الخراب . تهربت من الرد على أسئلة ياسين بشأن الذين ينتظرونني في الخارج ، وشكرته قائلاً إنني أحتاج مساعدته لكن ليس الآن .

وجدت أثاث غرفة النوم قد فكك عنوة وكل ما في البيت من أرائك وخزائن وأدوات قد بعثر ، حتى خلفيات الصور واللوحات جرى البحث فيها . أغلقت الأبواب وخرجت بسرعة مع ثلاثة من أقرباء مناسك في سيارة بيضاء نوع سوناتا باتجاه الجامعة .

التقيت بمناسك في كافتريا الفنجان وكانت زاهية الروح ومتفتحة باتساع مثل زهرة كاردينيا . أعلمتها بما حدث للبيت فهونت الأمر قائلة إنها ضربة انتقامية لا أكثر ، وأن علي ألا اقلق بعد الآن . أبديت استغرابي ورجوتها أن تخلع ثوبها الثلجي وألا تنحاز لي وتتذكر هذا الرجل المعتقل الآن لدى

الأمريكان بسببي ، ولمت نفسي على استسلامي لأفكارها المتهورة . وافقتني مبتسمة ووعدتني أن تفعل ما أريد ، فهي خلعت لي كل شيء إلا ثوب الثلج هذا ، طالبة مني ألا أفكر بالأمر ، وأن قريبها يحفظ جيداً ما لقنته إياه ، وأنه لن يمكث طويلا لدى الأمريكان لأنه من حراس أحد أعضاء مجلس المحافظة ، وأسلحته مرخصة ، ووجوده في بيتي لحمايتي من تهديد وصلني إثر تردد الأمريكان على بيتي .

ـ دعك من كل هذا واسمع خبر اليوم السعيد .

نظرت إليها محافظاً على ملامح الانزعاج فعادت لتقول مشددة على مخارج الحروف :

ـ الصحافة الأمريكية تحدثت اليوم عن تقديم الميجر ويمبر للمحاكمة العسكرية بتهمة الاغتصاب .

ـ معنى هذا . .

ـ نعم يا جلال سيعود وستفرح .

تغير لونها وهي تسألني :

ـ إذا عاد كمال وانتهى كل شيء هل ستسترد القلادة مني؟

انحنيت ونظرت في عينيها قائلا :

ـ إذا عاد كمال سأستردها منك لأنني سألبسك إياها علناً في حفل زواجنا الذي سنقيمه في سينما الأندلس .

أفلتت مناسك صيحة عميقة شلت الكافتريا ورمت ، في حركة طائرة ، بجسدها علي . لم أتمكن من صد ثقلها فاختل

توازني وسقطنا أنا وهي والكرسي والمنضدة الدائرية الحاملة لكؤوس الماء والفناجين وحاوية مكعبات السكر ، وتكومنا كلنا على الأرض بضجة انفجار قنبلة يدوية وراحت تنقش وجهي بقبلات عشوائية وسط تصفيق المراهقين وتعليقاتهم الساخرة .

***

وصلني صوت عنبر مخنوقاً ومتقطعاً لكنني فهمت منه أن شبابا يريدون اقتحام السينما . نقلتنا السوناتا البيضاء أنا ومناسك إلى الدواسة . لم أستطع تأمين الاتصال بتوفيق . تركنا مناسك في السيارة وهرولنا أنا وحراسي إلى السينما . وجدت العشرات من الشباب يغطون البوابة واحدهم يتكلم مع عنبر الذي وقف في المنتصف بعيدا عن السلايد الحديدي وهو يحمل بيده عصا طويلة . فرق الحراس الشباب إلا أن أحدهم واجهني قائلا :

ـ نحن هنا للدفاع عن السينما .

سألته :

ـ من أنت ومن طلب منك أن تفعل هذا .

ـ أنا محمد ، طالب في المرحلة الأولى بكلية الصيدلة . . عنبر لا يفهم ما نقول .

ـ كيف تريده أن يفهم هجومكم هذا بعد الذي حدث له؟

طلبت من عنبر أن يهدأ ويفتح لي البوابة . أدخلت طالب الصيدلة وطلبت من الحراس عدم السماح لأحد بالاقتراب . حافظ عنبر على تشنجه وراح يرفع العصا قابضاً عليها بيديه .

أخذت الشاب النحيف إلى حد القلق إلى الصالة وأجلسته على الكرسي الأول وطلبت منه أن يفهمني قصته :

ـ أستاذ نحن مجموعة من الشباب أسسنا نادياً للسينما وجئنا لنعبّر عن تضامننا معكم بعد حادث إطلاق النار .

سألته :

ـ أين هذا النادي .

ـ في بيتي . نعرض في كل جمعة فيلماً جديداً نجلبه من أربيل أو بغداد ونجتمع لمناقشته ، ويقوم أحدنا بقراءة مقالات عنه يأخذها من الانترنت . . هل ترفضون تضامننا يا أستاذ؟

ـ ألا تخافون؟ . . قد تتعرض السينما في أية لحظة إلى هجوم .

ـ نحن في الشارع معرضون لهذا في كل دقيقة . لا يوجد مكان آمن حتى نتجنب الأماكن الخطرة .

ـ نحن نقبل تضامنكم يا صديقي ولكنني أريدكم أن تكونوا أكثر شجاعة .

ـ هذه المرة الأولى وبصراحة لا نعرف ماذا يجب علينا فعله كي نتضامن معكم .

ـ ما رأيك أن تجعل مقر النادي هنا في مبنى السينما ونجلب أجهزة عرض كبيرة ، ويمكنكم في كل جمعة أن تأتوا إلى هنا وتشاهدوا فيلمكم وتعقدوا جلستكم وسنوفر لكم كل مستلزمات الجلسة من بوفيه مفتوح وتغطية إعلامية في كل الصحف والفضائيات .

ـ هل أنت جاد يا أستاذ؟
ـ وسنقوم أيضا بتوفير أحدث الأفلام لكم .
ـ هل أنت جاد .
ـ جاد أكثر مما تتخيل يا صديقي .
وقف بخجل بالغ وسألني :
ـ هل أبلغ أصدقائي؟
ـ نعم أبلغهم وموعدنا هنا في الغد بهذا التوقيت نفسه كي نحدد ما يحتاجه نادي السينما .
ـ هل تحتاجون إلينا في شيء .
ـ نعم . . المزيد من الحب للسينما .
قلت لمناسك ونحن نسير باتجاه مكتبة بانيبال :
ـ لم أعد أرى ما يرون .
أمسكت بأصابعي وسألتني :
ـ أتريدني أن أصرف الحراس؟
رفعت يدها إلى فمي وقبلتها .
عثرنا على شاكر محاطاً بالعديد من باعة الكتب المستعملة ؛ وقد افترشوا الرصيف بمحاذاة واجهة المكتبة التي بدت مفتوحة على التفحم وقد أكلها السواد .
قال لي شاكر وهو رخيم الروح مثل راهب :
ـ وصلوا إلى هنا قبلي . لقد جاءوا من شارع النجفي ويقولون إن هناك العديد منهم سيلحقون بنا .
وجدت إبراهيم يتصل بي :

ـ جلال . . لقد أحرقوا بيت المكاوي .

***

استغرق وصولنا إلى منطقة قريبة من البيت قرابة النصف ساعة ، واضطررنا إلى قطع المسافة المتبقية ، ركضا وأنا أمسك بيد مناسك التي فكت أزار ثوبها لتظهر بالبنطلون والبلوزة البيضاء الخفيفة مكتسبة حركة أسرع . فتحت الهاتف مع إبراهيم وأنا أرى زحاماً بشرياً كثيفاً يسد الشارع الذي يقع فيه البيت . عرفت من إبراهيم أنه تمت السيطرة على النيران وأن الوثائق بخير والأضرار قليلة .

ـ إبراهيم . . ماذا يحدث هنا .

ـ ماذا ترى؟

ـ المئات من البشر . بل الآلاف .

ـ أحقا؟

ـ أنا ومناسك نسير بصعوبة .

ـ أترى البيت؟

ـ ليس بعد . الزحام شديد .

ـ تقدم . . ستراني على السور .

ـ من هؤلاء . .

ـ ها . . هل وصلت؟

ـ ليس بعد . . الزحام أشد من قبل .

ـ لا تبالغ يا رجل .

ـ أكاد لا أرى السماء .

ـ تقدم أكثر . . حاول .

ـ هل حقاً الوثائق بخير؟

ـ اطمئن . .

ـ من هؤلاء؟ . . لا يوجد موضع قدم .

ـ إنهم الملائكة .

ـ ماذا . . ألسنا ثلاثة فقط؟

ـ هههههه

ـ أهؤلاء نحن؟

ـ أتراني الآن؟

ـ أرى . .

ـ ها أنا ألوح بيدي حاملاً نسخة من كتاب الوثائق . . أتراني؟

ـ أرى . .

ـ ماذا ترى؟

ـ أحلام . . أحلام .

الفهرس

THE AMERICANS IN MY HOME



الأمريكان في بيتي

وحده مايكل الّذي لا ينزعج من ردّي بالعربيّة، الّتي لا يعرفها، على كلامه الإنكليزيّ الّذي لا أعرفه، ويبتهج إذا ما قلت شيئًا بسيطًا بلغته. وجدته يقف باندهاش وحبّ، كما في مرّات عدّة سابقة، أمام ثلاّجتنا الفستقيّة ماركة Westing House، المصنوعة في مطلع ستّينيّات القرن العشرين. فتح بابها وتفرّج على طعامنا. ألقى نظرة على دواليب المطبخ، وأخذني إلى الحمّام. فتّش الغسّالة، وشمّ عبوات الشامبو، وعندما وصلنا إلى غرفة المعيشة تمهّل، كما في كلّ مرّة، وتطلّع إليّ منتظرًا أن أقول جملتي الإنكليزيّة المشبعة بالخوف: my wife and my children، فابتسم وهو يتراجع.

نقلوا قاذفات أنبوبيّة، ومناظير، وأجهزة بشاشات، وهوائيّات، وصناديق لم يسبق لي رؤيتها. كلّفوني بمهمّة ترتيب علب الذخيرة. يحدث هذا عندما يكتشفون أنني يمكن أن أكون مفيدًا. قبل أربعة أشهر، عهدوا إليّ بمهمّة حمل جهاز مكعّب الشكل يصدر صفيرًا خافتًا كلّ دقيقة، وعندما طلبت من مايكل أن ألمس بندقيّة الـ M16 نهرني بغضب، وأخذ منّي الجهاز، وجعلني أجلس على الأرض قرابة نصف ساعة تحت حراسة ذلك الّذي يقول لي دائمًا: fuck you. هذه الأمور تحدث عندما ننسى بشكل مفاجئ وغامض قوانين العداء التقليديّة. أحيانًا أجدهم يعيدون ملعقة ساقطة إلى مكانها الطبيعيّ أو ينجذبون، في مبادرات حنين عارض وغير مسيطر عليه، إلى واجب بيتيّ، مثل إرجاع الكراسيّ إلى منضدة الطعام، وتنسيق الزهور الاصطناعيّة في مزهريّة منسيّة.




ISBN 978-9953-36-150-9
9 789953 361505